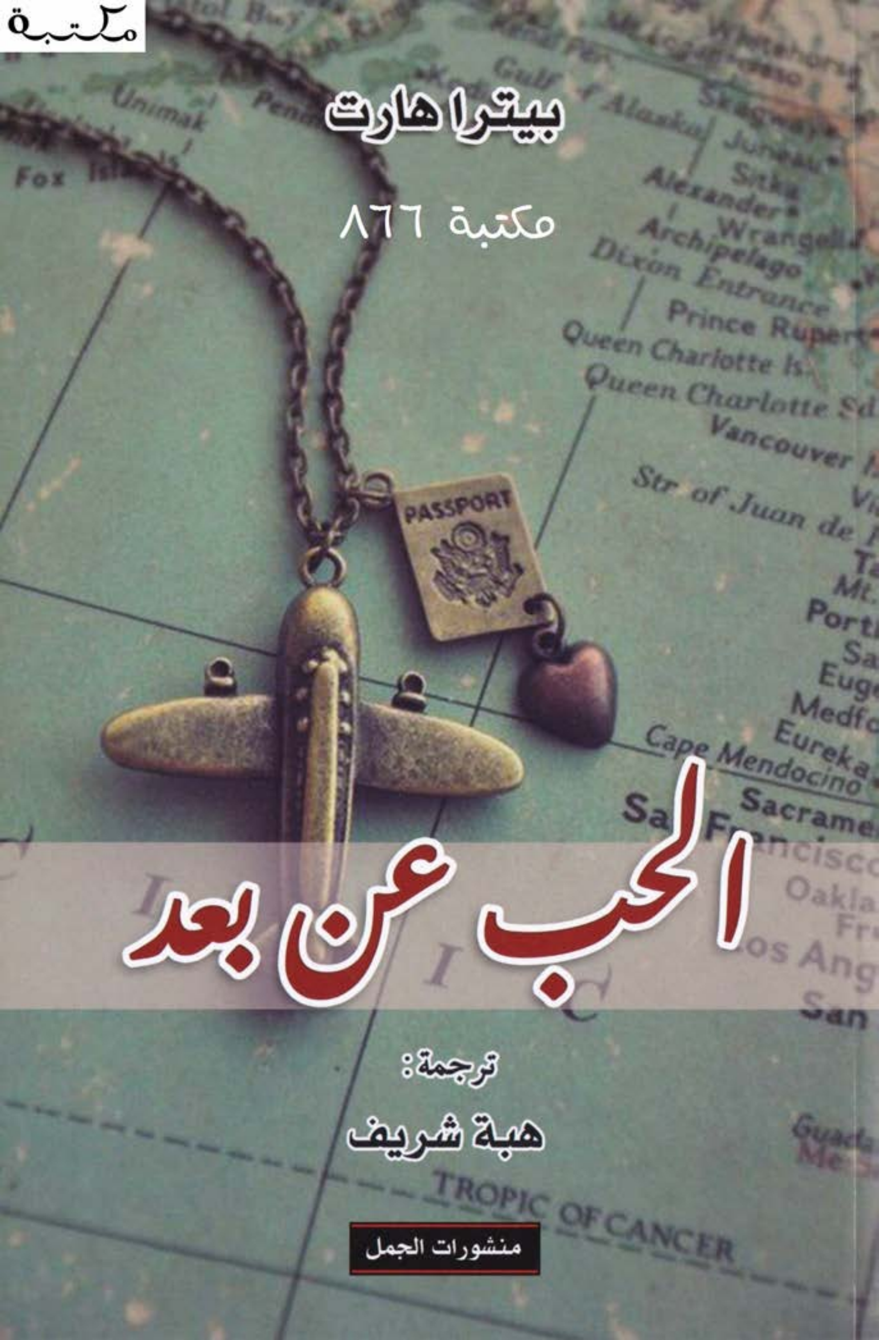


مكتبة
بيترا هارت
مكتبة ٨٦٦
PASSPORT
الحب عن بعد
ترجمة:
هبة شريف
منشورات الجمل



بيترا هارت: الحب عن بعد

بيترا هارت

الحب عن بعد

مكتبة | 866
سُر مَن قرأ

ترجمة:
هبة شريف

منشورات الجمل

مكتبة ٣ ٧ ٢٠٢٢
t.me/t_pdf

ولدت **بيترا هارت** في فرانكفورت على الماين عام ١٩٥٤، وتقيم بين برلين ومانهايم. عملت لدى دور نشر مختلفة لمدة أربعين عامًا وتخصصت في مجال الحقوق الفكرية وعقود بيع الحقوق. لها كتاب عن حقوق الكتب صدرت ترجمته عن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث عام ٢٠١١ بعنوان «**شراء الحقوق وبيعها. حفظ حقوق التأليف والنشر ومنحها والترويج لها**». تهتم المؤلفة بشكل خاص بالتبادل الثقافي بين ألمانيا والدول العربية.

بيترا هارت: الحب عن بعد، ترجمة: هبة شريف

Petra Hardt: Fernlieben

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٣١١١
الإمارات العربية المتحدة

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

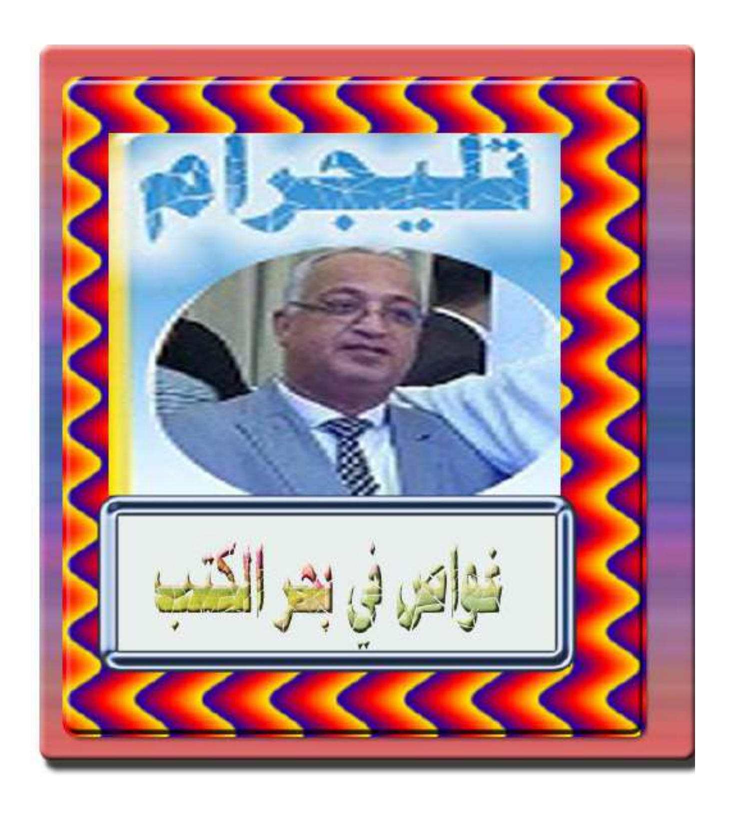
إلى كل من

أناليزه، كلاوس، جيزا

روث، باري، ليندا، أليشيا، غيتا

إيلين، كريستين، باين، تشارلي




تليجرام
غواص في بحر الكتب

الحب عن بعد

I

بيركلي

اللعب مع أحفادي هو أكثر شيء أحب أن أفعله. يعيشون في بيركلي فيما أعيش أنا في برلين. أطير كل عام مرتين عبر أيسلندا وغرينلاند وكندا لزيارة العائلة في سان فرانسيسكو. يقول أصدقائي: *إن الحياة في بيركلي تناسبك تمامًا*. لا أتفق معهم: فأنا لست امرأة من الهيبيز تقدمت في السن، كما أني لست يهودية أو هيسبانية تقيم هناك، ولا أعمل في أي من الجامعات. أشعر هناك بالوحدة عندما لا أتواجد مع أحفادي. أقام الأطفال لمدة خمس سنوات في مينلو بارك في جنوب سان فرانسيسكو. قال أصدقائي: *إن الحياة في مينلو بارك تناسبك تمامًا*. لم أتفق معهم: فأنا تخطيت الأربعين ولا أعمل لدى غوغل أو شركة ألفابت أو أمازون أو أبل أو فيسبوك، ولا أقود سيارة تسلا أو سيارة كوبيه ولا أتبع حمية النظام النباتي الصِرف (الفيغن)[1] إلا بين الحين والآخر فقط. الكليشيهات في كل مكان.

---

(١) النظام النباتي الصِرف أو نظام الفيغن يعتمد على النباتات بنسبة ١٠٠٪، أي أنه يخلو من جميع الأطعمة الحيوانية ومشتقاتها بما في ذلك مشتقات الألبان والبيض وذلك على عكس النظام النباتي (فيجيتريان) الذي لا يستثني منتجات البيض والألبان.

إنها بنية غريبة عني وستظل غريبة عني. ينطبق هذا على بيركلي وعلى مينلو بارك بنفس الدرجة. أي شخص قادر على وصف الثقافة الموحدة المعولمة في العصر الرقمي هو شخص لم يستقر غالبًا في مكان واحد لمدة طويلة. فأنت تحتاج إلى عقد من الزمان على الأقل لتستطيع أن تقول أنك قد نجحت في الوصول بالفعل إلى مدينة غريبة عنك. أفتقد «أولريش بيك» Ulrich Beck «الحب عن بعد وأشكال الحياة في عصر العولمة» كان واحدًا من المجالات التي تخصص في البحث فيها، وكتب بالاشتراك مع زوجته «إليزابت بيك ـ غرنسهايم» Elisabeth Beck-Gernsheim في عام ٢٠١١ كتابًا بنفس العنوان. كنت سأطلب منه أن يستكمل كتابه، لكنه توفي في وقت مبكر. يبدأ الحب عن بعد مع التواصل عبر السكايب ويُستكمل في المطارات. ويصبح المطار المقصود القِبلة، في الاتجاهين. إنه قِبلة المهاجرين وقِبلة العائلة التي بقيت في الوطن. نادرًا ما اختبرت الشعور بالغربة بهذه القوة كما حدث لي في سافانجر في النرويج. فهناك ينسحب الأهالي إلى منازلهم كل مساء، فقد اضطروا إلى التخلي عن صفة حسن الضيافة منذ وقت طويل بسبب هذا العدد الكبير من العمال الأسيويين والأفارقة المتواجدين على منصات التنقيب عن النفط، وبسبب الإزعاج الذي يتعرضون له من ألفي سائح يأتون إليهم يوميًا في رحلات سياحية بحرية. إنها مدينة جميلة بها أكبر وأقدم الأحياء السكنية في أوروبا الذي بنيت فيه البيوت من الخشب، ترزح هذه المدينة تحت وطأة الرحلات السياحية اليومية القصيرة وتحت وطأة صناعة النفط العالمية أيضًا.

والعمال الأفارقة والأسيويون ينغلقون على ذواتهم. تبدأ المشاهد الحزينة في مطار ستافانجر عندما يودع الأهل أطفالهم العائدين مع أجدادهم إلى آسيا في حين يظل عائل الأسرة في النرويج. أسأل نفسي كيف يمكن أن يحتمل المرء هذا. فيكفي أن ينقطع التواصل الرقمي مع أحفادي في كاليفورنيا حتى أشعر بالتوتر. تتشكل مكونات روتيني اليومي من انتظار المكالمة التالية عبر سكايب أو فيس تايم[١] وانتظار البريد الذي يضمرسومات الأحفاد وانتظار رسالة الواتس آب التالية والصور المحملة على حساب تويتر المغلق على أفراد العائلة والفيديو على تطبيق ماركو بولو. أصبحت المناطق الزمنية المختلفة جزءًا مستقرًا بقوة داخل الروح منذ وقت طويل. يقول الأصدقاء: سوف *تتأقلمين جيدًا على الحياة في كاليفورنيا*. جئت إلى الساحل الغربي في الولايات المتحدة الأمريكية في وقت متأخر مقارنة بأفراد جيلي في ألمانيا الاتحادية. فقد كنت في السادسة والخمسين عندما أتيت إلى سان فرانسيسكو لأول مرة، في حين سافر أصدقائي في سبعينيات القرن الماضي إلى كاليفورنيا وأخذوا يتجولون في سان فرانسيسكو ومونتيري ويقودون سياراتهم على طريق ٦٦. أما أنا، فقد سافرت بعد إتمام المرحلة الثانوية إلى إيطاليا وفرنسا. هل ثمة علاقة بين شعوري الشخصي بالغربة في كاليفورنيا وبين سنوات عمري؟ وهل يشعر الطلبة في جامعة

---

(١) برنامج فيس تايم هو أحد التقنيات التي توفرها شركة آبل لمستخدمي أجهزتها لاجراء مكالمات الفيديو والمكالمات الصوتية.

كاليفورنيا بنفس الشعور؟ أصل إلى بيركلي في فبراير ٢٠١٨، أذهب في نفس الصباح إلى الجامعة وأسير داخل الحرم متوجهة إلى مكتبة شارلز فرانكلين دو Charles Franklin Doe. أجد في مدخل المكتبة الضخم إعلانًا عن معرض يقام لفترة محدودة: «إعادة صياغة الشيخوخة» Reframing aging، إنه معرض يضم صورًا فوتوغرافية وقصصًا عن أناس تتراوح أعمارهم بين السبعين والسادسة والتسعين. أقيم المعرض برعاية مؤسسة «آشبي ڤيلاج» Ashby Village، وهي مؤسسة غير ربحية تنظم لقاءات من الاثنين إلى الجمعة من كل أسبوع تجمع فيها بين كبار السن ذوي الاهتمامات المتشابهة. ألاحظ اهتمامي الجديد بكبار السن بشيء من الشك. أخمن أنه لابد وأن يكون له علاقة باقترابي من سن التقاعد. قبل خمس سنوات فقط، كنت قد سخرت من منتجات مكافحة الشيخوخة في استبيان نشرته مجلة «بورزنبلات» Börsenblatt، وهي المجلة الخاصة بصناعة النشر الألمانية. لكني أنهيت منذ ذلك الوقت مشاهدة سبعة مواسم من حلقات «غريس وفرانكي»(١) Grace and Frankie وخمسة مواسم من حلقات «منهج كومنسكي»(٢) The Kominski Method

---

(١) حلقات تلفزيونية كوميدية أمريكية بدأ بث أول حلقات الموسم الأول منها في عام ٢٠١٥. كتبت الحلقات «مارتا كاوفمان» Marta Kauffman بالاشتراك مع «هوارد موريس» Howard J. Morris والبطولة فيها: «جين فوندا» Jane Fonda و«ليلي توملين» Lily Tomlin، وتدور حول صديقتين اكتشفتا في آخر عمرهما وبعد زواج طويل أن أزواجهما مثليان. (المترجمة)

(٢) حلقات تلفزيونية أمريكية كتبها «تشاك لور» Cuck Lorre وبطولة «مايكل=

الذي يمثل فيه كل من «مايكل دوغلاس» Michael Douglas و«آلان أركين» Alan Arkin. شاهدت الحلقات على شبكة نيتفليكس. تذكرت وأنا أشاهد المعرض أول زيارة لي لحرم الجامعة الشهير في بيركلي قبل بضعة سنوات. كنت قد حددت مدة ثلاث ساعات أزور فيها الحرم الجامعي وبرج الجرس. ذهبت إلى مركز معلومات الزوار، وأحضرت كل الخرائط اللازمة للزيارة واستعلمت عن مكان كلية الفلسفة. سألت عن أي آثار تركها «أدورنو»، فقد عاش «تيودور ڤ أدورنو» Theodor W. Adorno في أثناء منفاه في الأربعينيات في مدينة سانتا مونيكا، وبدأ هناك تعاونًا مع مجموعة بيركلي الدراسية الخاصة بالرأي العام Berkely Public Opinion Study Group لقةجماعة تبيركلي الدراسية الخاصة بالر، وكان يسافر أحيانًا من لوس أنجلوس إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي. أعترف أني بالغت في أمنيتي بأن أجد في كلية الفلسفة لافتات تشير إلى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. فالطالب اللطيف في مكتب الاستقبال لم يكن يعرف اسم «تيودور ڤ أدورنو» وسأل في اقتضاب: «هل أنت مهتمة بالفلسفة؟»

=دوغلاس» Michael Douglas «ساره بيكر» Sarah Baker، وبدأت إذاعتها في عام ٢٠١٨. تعالج الحلقات موضوعات الشيخوخة والمرض والموت والعلاقة بين الكبار والأجيال الأصغر. (المترجمة)

وادي السيليكون

استطاع «ستيڤ چوبز» في عام ١٩٩٨ أن يجعل آبل شركة عالمية بعد تأسيسها باثنين وعشرين عامًا فقط، وفي نفس العام أسس كل من «لاري پيچ» Larry Page و«سيرغي برين» Sergey Brin محرك البحث غوغل في مينلو بارك. وفي ذلك الوقت كنتُ أقيم مع عائلتي في منطقة تاونوس وأقود سيارتي يوميًا كل صباح على طريق A66 السريع لأذهب إلى مكتبي في دار نشر «زوركامپ» في فرانكفورت وأعود في العصر من نفس الطريق. لم يكن ما يدور في وادي السيليكون في ذلك الوقت على جدول أعمالنا اليومي، فآنذاك لم نفعل أكثر من أننا بدأنا الاعتياد على استخدام الكمبيوتر في وظائفنا وبدأنا التعامل مع سعة التخزين ومعالجة البيانات والإنترنت. كنا متأخرين في ذلك. أدركنا أن المنتجات القادمة من وادي السيليكون سوف تنقل حياتنا نقلة جديدة تمامًا، ولكننا لم نكن ندرك ما سيحدث بكل دقة. عندما سافرت في عام ٢٠١٠ لأول مرة إلى منطقة الخليج في جنوب سان فرانسيسكو، إلى ما يطلق عليه اسم وادي السيليكون، كانت شركة غوغل قد انتقلت من مينلو بارك إلى ماونتن ڤيو وأصبح الوادي أهم المنتجين في مجال صناعة التقنية

الرقمية في العالم. أصبح لمقرات عمالقة تقنية المعلومات مدنًا خاصة تأسست داخل البلدات الصغيرة نسبيًا في منطقة خليج سان فرانسيسكو. فقد صمم المعماري «نورمان فوستر»[1] Norman Foster حديقة آبل بارك في مدينة كوبرتينو وتعتبر الحديقة الأكثر إدهاشًا وأكثر صدقًا في انعزالها. أما شركة فيس بوك فقد أقيمت في مينلو بارك بين طريق بايشور الحر وبين طريق بايفرونت اكسبريس واي السريع. كنت أمر من هناك مرتين يوميًا، مرة لأذهب بحفيدتي إلى الحضانة ثم مرة أخرى لأعود بها إلى المنزل. كان من المفترض أن تمنح البيوت على الجانبين والأبنية الملونة المقامة على أرض الشركة بين الطريقين شعورًا بالراحة، ولكنها لا تفعل، فهناك ما هو أفضل، فذلك البيت الريفي الكبير ذو الحديقة الكبيرة عند ناصية طريق جلنوود/ميلدفيلد في مينلو بارك أفضل على سبيل المثال. عرض البيت للبيع في عام ٢٠١٦ بواسطة شركة سوثباي، وقبل ذلك التاريخ بسنة واحدة، كان البيت يتلألأ بالأضواء وزينة أعياد الميلاد، وكنت واثقة أنه بيت تعيش فيه عائلة سعيدة: أطفال في سترات زرقاء، نبيذ كابرنيت سوفينيون الأحمر من وادي نابا، ومؤشر داو جونز يشير إلى اقتصاد منتعش، وفوق المنضدة وسط الهدايا كتاب جديد للكاتب «ماك ايوان» McIwan مبتاع من مكتبة

---

(١) نورمان فوستر Norman Foster معماري بريطاني ولد عام ١٩٣٥ واشتهر بتصميماته المعمارية المرتبطة بالتكنولوجيا. ويعتبر من أهم المعماريين البريطانيين المعاصرين.

كبلر Kepler في مينلو بارك. ربما وجدت تلك العائلة السعيدة بيتًا أكبر فوق التلال بين سان فرانسيسكو والمحيط الهادئ. ربما لم تكن العائلة سعيدة على الإطلاق، كما كان الحال مع تلك العائلة الصديقة في تاونوس وأطفالها في ستراتهم الزرقاء. فهناك قررت محكمة الأسرة ألا يقترب الزوجان من بعضهما بعضًا وأن يحتفظا مسافة كافية بينهما لا تقل عن مائة متر.

أقف في وقت الغداء مع حفيدتي في طابور طويل أمام أحد المطاعم المنتشرة في طريق الجامعة في بالو ألتو: سوشيريتو، سوشي ضخم، سوشي في حجم XXL، عشرة أصناف من السوشي بحجم البوريتو ـ وجبة قبلة الغيشا تقدم مع التونة، سومو كرانش يقدم مع لحم السلطعون. يمكنك أن تختار أيضًا مايان دراجون أو بوذا بللي أو سلمون سامبا. نشترك أنا وحفيدتي في تناول سومو كرانش مع لحم الكابوريا. نذهب بعد الغداء إلى ملعب الأطفال في حديقة بورغيس في مينلو بارك. تطل الحديقة على جدول ماء رائع يمر عبر بالو ألتو. بالحديقة مساحات واسعة من العشب وحمام سباحة مفتوح وملاعب للبيسبول وأماكن للتزلج. يأتي العديد من العائلات إلى الحديقة في عطلات نهاية الأسبوع للشواء أو للاحتفال بأعياد ميلاد الأطفال. حفيدتي فوق الأرجوحة وإلى جانبها طفل تغني له جدته الآسيوية أغان أمريكية للأطفال بصوت عال ومنغّم. لا تعرف حفيدتي حتى الآن سوى أغاني الأطفال الألمانية. ولكننا لن نغنيها بصوت عال هنا في حديقة بورجيس. أتوقف في طريق عودتنا لأدخل مكتبة كبلر وأشتري ثلاثة كتب للأغاني تضم أشهر الأغاني

الأمريكية للأطفال ومعها قرص مدمج. قال ابني إن كتابًا واحدًا كان كافيًا. تستخدم مجموعة السكان المتنوعة التي استقرت هناك ملاعب وادي السيليكون. يكبر الأطفال على خليج سان فرانسيسكو وهم يتحدثون لغتين على الأقل. الإنجليزية واللغة الأم التي تتحدث بها عائلاتهم. أتحدث مع أحفادي بالألمانية فقط، أما الأطفال، فيتنقلون بسهولة وبدون مجهود بين الإنجليزية والألمانية وفقًا للحاجة والموقف. تنتج اللغتان اللتان نستخدمهما للتحرك في منطقة الخليج واقعين يختلف كل منهما عن الآخر. يكبر جيل الأحفاد في عالم لن أختبره إلا جزئيًا فقط. هذه التجربة المحدودة هي ما تجعل الوادي وإمكانياته غير المحدودة محتملاً.

أذهب في المساء أحيانًا إلى مطعم «بيرد دوغ» Bird Dog في بالو ألتو بصحبة زوجين يعملان بالتدريس في جامعة ستانفورد. ننتمي كلنا إلى دفعات ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٠ طلبة في ستانفورد ي باحتمالاته غير المحدودة محتمل، ولدنا جميعًا في ألمانيا ووحّد الوادي بيننا: المهاجران اللذان يحملان الآن جنسيات أمريكية والزائرة. تغلب الزوجان منذ وقت طويل على الشعور بالغربة الذي أشعر به في وادي السيليكون. القلق مما هو آت أكبر من قدرتنا على الشعور بالهدوء والاطمئنان. أفكر في «إليزابث ستراوت» Elizabeth Strout، التي كتبت تقول في روايتها «الزيتون مرة أخرى»: «لابد أن نتحمل عبء ما لا يمكن تفسيره بأكبر قدر ممكن من الكياسة.» أتأثر للغاية بالجمل التي تشجعك على اتخاذ موقف.

أصطحب حفيدتي في اليوم التالي لتناول الغداء مع أبويها في

مقر غوغل/ألفابت الرئيسي في منطقة أمفيثياتر باركواي في ماونتن فيون. عُلقت لافتة على المدخل تحمل التعليمات: *Please be Google: All guests must be registered and wearing a visitor badge prior to entering a Google facility. Even Grandma and her kids.* *(من فضلك كن جزءًا من غوغل: على كل الزائرين تسجيل أنفسهم وارتداء شارة الزوار قبل دخول أي منشأة من منشآت غوغل، حتى الجدة والأطفال.).*

أقول لحفيدتي: «لقد وضعوا تلك اللافتة من أجلنا.» ألاحظ أن إدارة المؤسسة تضع الجدات والأطفال في نفس الفئة، أي الفئة الأكثر تعرضًا للمخاطر. يعمل في المقر الرئيسي أربعون ألف موظف. إنه مثل مدينة ذات مبان واسعة لا يتجاوز ارتفاع معظمها أربعة أدوار بسبب شروط البناء. مكان ضخم به مساحات خضراء ونخيل ومطاعم ومقاه وحمامات سباحة ومنشآت رياضية، كل شيء هناك مطلي بألوان غوغل. أرى العديد من العائلات الهندية والآسيوية التي تزور الشركة، ولكن لا وجود للجدات بينهم. أؤكد على وضعي المميز، لكن لا أحد يلاحظ ذلك. الطعام في شركة غوغل جيد، وفير ومتنوع ويراعى كل الأذواق ـ طعام نباتي صِرف (فيغن) طعام نباتي، آسيوي، أمريكي، إلا أنه ليس بنفس جودة الطعام في شركة تويتر في سان فرانسيسكو. لم أتذوق طعامًا أفضل من الطعام الذي يقدم في شركة تويتر. لكن لا يعمل هناك سوى أربعة آلاف شخص. لم أتناول الطعام بعد في شركة فيس بوك. فلا أصدقاء لي هناك.

تسير في وادي السيليكون قطارات رمادية اللون تصدر أصواتًا مثل الأنين وتسمى «كالترين»، إنها قطارات تقوم شركة «ترانزيت أمريكا سيرفيسيس» بتشغيلها وتنقل يوميًا مئات الآلاف من الركاب من سان فرانسيسكو وألباني وريتشموند وبيركلي وأوكلاند إلى بالو ألتو وماونتين فيو وكوبرتينو حيث شركات آبل وهوليت باكار وغوغل واي باي وتويتر وفيس بوك وياهو وأدوبي حيث فروع شركات إس إيه بي وميكروسوفت ونوكيا وأمازون، كما تنقل الركاب أيضًا إلى مائة شركة أخرى من شركات التكنولوجيا المعروفة على مستوى العالم، وإلى خمسمائة شركة انترنت وشركات ناشئة أخرى أقل شهرة، بالإضافة إلى المتجهين إلى المؤسسات البحثية في ستانفورد وبيركلي. يوجد في كل قطار، وفقًا لحجمه، ثلاث أو أربع عربات مخصصة للدراجات الهوائية فقط. صرير الفرامل الصارخة عندما تتوقف القطارات في المحطات والإعلان عن قدوم ورحيل القطارات بصوت مثل الجرس يبدوان لي كمفارقة تاريخية في وادي السرعة الرقمية القصوى.

تغفو حفيدتي في طريق العودة من ماونتن فيو إلى مينلو بارك. أستمر في القيادة حتى لا تستيقظ من قيلولتها. أكتشف هذه المرة الشوارع جنوب غرب جامعة ستانفورد: سميت الشوارع بأسماء الجامعات الشهيرة في الساحل الشرقي: طريق برينستون، طريق يل، شارع هارفارد. استيقظت حفيدتي بعد هذه الرحلة بالسيارة عبر «رابطة اللبلاب»[1] Ivy League، التي استغرقت نصف ساعة. نذهب

(١) رابطة اللبلاب Ivy League هي رابطة تجمع ثماني جامعات تعتبر من أشهر=

إلى ملعب الأطفال المليء بالأجداد والمربيات الذين ينتمون إلى ثلاثين بلدًا مختلفًا. في الماضي كانت حديقة بارك مونسيو في باريس هي وجهة مربيات الأطفال، وجهتهن الآن هي بالو ألتو. إنها التحولات. أفتقد «أولريش بيك».

أذهب صباح كل يوم سبت إلى مكتبة كبلر في مينلو بارك. فالكتب التي طلبتها وصلت: «الملهمة» Muse للكاتب «جوناثان جالاسي» Jonathan Galassi و«البيت الكبير» Great House للكاتب «نيكول كراوس» Nicole Krauss. أدور بنظري في المكتبة وأرى حوالي أربعين شخصًا في الستين من عمرهم أو أكبر وقد اتخذوا أماكنهم. أبحث بنظري عن الكاتب أو الكاتبة. وتشرح البائعة في المكتبة أنه لا توجد قراءات. «إنه يوم الأحداث الغامضة في مكتبة كبلر» Mystery Day at Kepler's. فسوف تقام مسابقة، وفيها سيقرأ كل فرد من الحاضرين قصة قصيرة كتبها بنفسه. وتقول البائعة: «إنه حدث مدهش» «It's amazing» يقتصر الحضور على المشاركين الذين سجلوا أسماءهم. أنسحب لأغادر وأنا أتمنى لهم كل الأمنيات الطيبة.

بعد أربعة شهور، في يناير ٢٠١٧، كنت من جديد في الطائرة التي تطير فوق غرينلاند باتجاه كاليفورنيا. أحمل بين أمتعتي هذه

=وأقدم جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وتقع كلها على الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية: جامعة هارفارد، جامعة ييل، جامعة برينستون، جامعة بنسلفانيا، جامعة كولومبيا، جامعة براون، كلية دارتموث، جامعة كورنيل. (المترجمة)

المرة دمية من أجل حفيدتي. ففي أثناء الحديث معها عبر سكايب أمسكت أمام الشاشة بدميتين كنت ألعب بهما في الخمسينيات وسألت: «أي دمية تريدين أن أحضرها معي بعد ثلاثة أسابيع؟» اختارت ابنة ابني الدمية «فروني» Vroni ذات الشعر الأسود الطويل. اختار أبي هذا الاسم للدمية عندما أهداها لي في أعياد الميلاد في عام ١٩٥٨. درس أبي في ميونيخ لفترة قصيرة فقط بين عامي ١٩٤٨/١٩٤٧ ثم قطع دراسته، لكنه أصبح منذ ذلك الحين مولعًا بفريق بايرن ميونخ والأسماء البافارية أيضًا. إلا أنه تزوج فيما بعد من امرأة من غدانسك. أبدت والدته بعض التحفظات على الزواج: «إنها لاجئة ومريضة بمرض رئوي وكاثوليكية الديانة». لكن لم يتراجع أبي عن قراره. «أغنس»، جدتي لأمي، هي من ساندت أبي بقوة. فقد رأت في أبي فرصة العمر لابنتها المريضة. رجل طيب ووسيم. أما تحفظات والدته فكانت تقاومها كل يوم أحد بالبط والنقانق التي كانت تتفاوض مع التاجر الكاسوبي في سوق هايدلبرغ لتشتريها بسعر مناسب. وأبي، لأنه شخص محب للطعام وذواق له، فقد سمح لها بالتأثير عليه.

يجب أن أرمم الدمى. أبحث عن النصائح في الانترنت: عيادة ترميم الدمى «بلاته» في شارع كيت نيدركيرشر فوق جبل برنتسلاور. أتخيل أنني سألتقي بامرأة من شرق برلين تبدو ربما مثل «كارمن مايا أنتوني»[(١)] Carmen-Maja Antoni. لكني أرى عند الباب شابة طويلة

---

(١) ممثلة ألمانية ولدت عام ١٩٤٥ واشتهرت في ألمانيا الشرقية في البداية قبل=

ترتدي مريلة ناصعة البياض فوقها شارة تحمل صفة «طبيبة الدمى». إنه تطوير يناسب التغير الذي طرأ على طابع الحي على ما أعتقد. أنتظر في حجرة تجلس فيها امرأة تحمل دمية كبيرة للغاية. أسأل في تعاطف: «ماذا بها؟» - «إنها معدتها.» أذهب لأسترد الدمية بعد أسبوعين، أصبح لها أصابع جديدة وشعر جديد، كما أن مؤخرة رأسها جديدة أيضًا. تقول السيدة «پلاته»: «قودي بحرص.» ربطت حزام الأمان حول الدمية كما تقتضي اللوائح وانا أتمنى ألا يراني أحد. أشعر بالسعادة.

أعود إلى نفس عاداتي بمجرد ما أصل إلى وادي السيليكون. تزداد ثقتي في التعامل مع سكان الوادي مع كل زيارة. تعلن نظرتي أنني أنتمى إلى هذا المكان. لكنها حسابات خاطئة. فأنا لا أنتمي إلى هذا المكان. دعتني صديقتي الوحيدة في مينلو بارك، «باربرا كاتس منديس» Barbara Katz Mendes، إلى العشاء ودعت ثلاث صديقات أخريات: إحداهن مطلقة للمرة الثالثة، والأخرى طلقت مرتين، أما الصغرى فغير مرتبطة وتشترك في سباقات الماراثون. يعمل ثلاثتهن بالتدريس في جامعة ستانفورد أو جامعة بيركلي. منهن جدات ومنهن من لم تنجب، ويتبعن جميعًا حمية النظام النباتي الصّرف (الفيغن)،

=توحيد الألمانيتين، كانت عضوة في فرقة برلين التي أسسها برتولت برشت مع زوجته في عام ١٩٤٩. وبعد توحيد الألمانيتين أصبحت كارمن مايا أنتوني وجهًا تلفزيونيًا معروفًا في كل المناطق الناطقة بالألمانية في وسط أوروبا، خاصة بعد ظهورها في مسلسل شهير على إحدى قنوات التلفزيون الألماني الحكومية. (المترجمة)

إنهن نشيطات ولا يشعرن بالندم على أي شيء. قرأ ثلاثتهن كتاب «باربرا» الوقوع في حب الحياة التي تحياها» Falling in love with your life . إنها أمسية مبهجة. لكني ما زلت متشككة. أهدتني «باربرا» نسخة من كتابها وقالت، عليك أن تقومي بأنشطة أكثر من ذلك، عندئذ ستعود الحياة ويعود الحب. أؤجل قراءة الكتاب في الوقت الحالي.

سيلقي صديق لي محاضرة في المكتبة الألمانية بجامعة ستانفورد، محاضرته عن قصيدة «بول تسيلان» Paul Celan «تسلسل الموت». تخيلت أن المكتبة ستكون كبيرة. لكني وجدتها مجرد قاعة صغيرة تضم مجموعات كاملة للمؤلفين والمؤلفات الألمان صدرت في الخمسين عامًا الأخيرة. توهمت أني في دار نشر «زوركامپ»، . فقد وجدت مقعدًا إلى جانب مؤلفات هاينر موللر Heiner Müller . كان موعد المحاضرة ظهرًا في وقت الغداء. أحضر مورد الطعام المكسيكي التي تحمل شركته اسمًا عربيًا مقبلات لبنانية. اعتقدت أننا سنتناول الطعام بعد انتهاء المحاضرة، لكني كنت مخطئة. فالكل كان يجلب الطعام قبل بداية المحاضرة، وعندما قررت التوجه إلى البوفيه بدأت المحاضرة، فجلست مكاني بلا طعام. إلى جانبي جلس مؤرخ ألماني شاب فوق مقعد منخفض للغاية وقد مال جسده، كان قد ملأ طبقه عن آخره حتى أني خشيت أن يتساقط الطعام على ملابسي، ولكني تمنيت في الوقت نفسه أن يسقط الطعام على ملابسي لأني كنت جائعة. تفهمت ما فعله المؤرخ. فالأسعار في وادي السيليكون مرتفعة للغاية. سوبر ماركت دريغرز

Draeger's في مينلو بارك هو المتجر المفضل لدي في الوادي، تملكه نفس العائلة منذ أكثر من تسعين عامًا. يعود أصل «غوستاف دريغر» Gustav Draeger إلى شتشين في بولندا، وقد أسس هذا المتجر في سان فرانسيسكو في عام ١٩٢٥ وخصصه لبيع أنواع الطعام الراقي. إنه يوفر كل شيء تشتهيه المعدة ويمتلك قسمًا خاصًا لبيع النبيذ يمكن أن ينافس بعض متاجر بيع النبيذ في باريس. تضحك صديقتي «باربرا كاتس ميندس» على ميلي غير المفهوم للشراء من «دريغرز». فهي تشتري احتياجاتها من «هول فودز» Whole Foods من سلسلة متاجر أمازون، أو من «تريدر جوز» Trader Joe's التابع لسلسلة متاجر «ألدي» Aldi.[1]

كل نقاط الاتصال (الهوت سبوت) في وادي السيليكون ـ في ماونتن فيو وفي بالو ألتو وفي مينلو بارك ـ قريبة من المحيط الهادئ، ومع ذلك، وبسبب حركة المرور وكثرة الطرق المتعرجة فإنك تحتاج إلى خمسين دقيقة على الأقل حتى تصل من بالو ألتو إلى «هاف موون باي»، وهو منتجع ساحلي ممتد على طول الشاطئ وبه مرسى كبير لليخوت والمراكب الشراعية. استقللت ذات مرة بدافع الفضول الحافلة من «ريدوود سيتي» إلى هناك، كنت تقريبًا وحدي مع بعض الموظفين المكسيكيين، واستغرقت الرحلة تسعين دقيقة. لي صديقة متخصصة في علم الأدب وتركز أبحاثها

(١) ألدي هي أقدم سلسلة متاجر ألمانية خاصة بالسوبرماركت تأسست عام ١٩١٣. (المترجمة)

على غوته، قالت لي إنها تذهب مرتين في الأسبوع إلى «هاف موون باي» لتمارس رياضة المشي بطول الشاطئ. دعتني هذه الصديقة في سنوات زياراتي الأولى لمدينة مينلو بارك بضعة مرات لتناول الغداء في منزلها. يتعايش في منزلها العالم القديم مع العالم الجديد في شاعرية وهدوء. منزلها مثل *ببليوتيكا غوتيانا* (مكتبة متخصصة في أعمال غوته) تقع وسط أشجار الليمون والنخيل. أعتقد أن السيد المستشار غوته كان سيعجبه ذلك كثيرًا. أتخيل أن «يوهان ڤولفغانغ غوته» كان سيحب أن يعيش في بالو ألتو، فهذا المكان مناسب له بسبب تعدد تخصصاته وعبقريته فيها، وبسبب اهتمامه بالمشاركة في الأحداث السياسة.

يمكنك أن تمشي على شواطئ «هاف موون باي» لساعات طوال. ويمكنك التزلج على الماء في المحيط الهادئ. وأنا لا أجيد التزلج على الماء، كما أن السباحة غير ممكنة في شمال كاليفورنيا لأن المحيط شديد البرودة وتحتاج إلى ارتداء بذلة من النيوبرين.[1] لكن لن يبدو مظهري جيدًا في مثل هذه البذلة. كنت أكتفي بوضع قدمي في الماء بين الحين والآخر حتى أقول أني وضعت قدمي في المحيط الهادئ. عندما تقف على شاطئ المحيط في كاليفورنيا، تعرف أن الصين على الناحية الأخرى منه، وإذا وقفت على الضفة الشرقية للمحيط في تايوان تستطيع أن تتخيل كاليفورنيا. أما إذا وقفت في فنستير في بريتاني فتستطيع أن ترى بعين خيالك جزيرة

(١) بذلات غطس مقاومة للبرودة. (المترجمة)

مارثا فينيارد في جنوب بوسطن والعكس أيضًا. لا يهم إذا كنت لا أستطيع السباحة في المحيط. فما يميز المحيطات هو الوقوف أمام الماء وتخيل الأماكن، الأماكن على الضفة الأخرى. ربما سأفعل ذلك بعد تقاعدي: سأقف لساعات طوال على شاطئ المحيط وأتخيل الناحية الأخرى منه.

بعد ثلاثة أسابيع وفي أثناء رحلة العودة من سان فرانسيسكو إلى برلين عبر فرانكفورت على الماين أقول لنفسي أنني عاطفية تمامًا مثل كريستيان. كنت قد اتهمت صديقًا لي بأنه يلجأ في اللحظات الحميمة إلى سرد الحكايات عن حفيده. ربما لو كان لدينا نفس الأحفاد لكان ذلك مقبولاً، ولكن ليس لدينا أحفاد مشتركون، ليس لدينا في الواقع أي شيء مشترك. انسحب من حياتي بعد اتهاماتي له ولم يعد يتصل بي. أجلس في مقعدي بجانب نافذة الطائرة، وتحت مني بحيرة تاهو وأقاوم حتى لا أبكي. يبكي المرء في الطائرات بسهولة. إنه ضغط الهواء. قررت أن أحتذي بالأزواج الهنود العديدين. إنهم لا يبكون. يطيرون حول نصف الكرة الأرضية لزيارة أبنائهم وأحفادهم في كاليفورنيا، ولكنهم لا يبكون، على الأقل لا يبكون في الطائرة. أود الآن لو أستطيع أن أحكي لأحد عن أحفادي. الوداع مؤلم. أعيد ضبط تطبيق العد التنازلي: سيمر على الأقل تسعون أو مائة وعشرون يومًا من التواصل العائلي الرقمي حتى موعد اللقاء التالي. أرتاح عندما أرى الآخرين يبكون. كنت سعيدة الحظ في رحلة العودة. فالشابة التي وقفت خلفي في طابور الانتظار عند الفحص الأمني في مطار سان فرانسيسكو الدولي كانت تبكي.

وانهمر سيل دموعها عندما رأت صديقها خلف الحاجز الأمني وقد شكل أصابعه على هيئة قلب. نطير الآن فوق كندا. نظرت إلى جارتي في المقعد المجاور التي امتلأت عيناها بالدموع. تأملت الشاشة أمامها لأخمن إذا كان الفيلم هو السبب في بكائها، فلم أر سوى أحصنة وأميرات. لكنها لم تكف عن البكاء، فسألتها إذا كنت أستطيع أن أساعدها بشكل ما أو أواسيها. ضحكت وقالت إنها تبكي بسبب الفيلم. أحيانًا ما أشاهد حتى أربعة أفلام في أثناء رحلات العودة، ثم لا أتذكر فيما بعد ما شاهدته. أعجب كثيرًا بالمسافرين الذين يستطيعون النوم أو العمل. أرى في الشاشة أمامي أننا نطير فوق غرينلاند، فأفتح ستارة النافذة فتحة صغيرة وأنظر إلى جبال الثلج.

يساعدك حي ڤيدينج في برلين على التعامل مع تحديات الحب عن بعد. فكل شيء نحتاجه من أجل البقاء مكتوب هناك فوق جدران المنازل: الهجرة ليست جريمة MIGRATION IS NOT A CRIME. كانت الساعة السادسة والنصف صباحًا وأنا أقود سيارتي في طريقي إلى المكتب، لكن غيّر نظام الملاحة مساري ووجهني إلى محطة وقود غير بعيدة عن شارع موللر لأن محطة الوقود التي أستخدمها عادة في شارع زيشتراسه كانت تزود في ذلك الوقت بالوقود. أعقد النية بيني وبين نفسي: «سوف أغيّر مساري مرة أخرى لألتقط صورة.» حاولت لأسابيع طوال التقاط صورة لغرافيتي[١] عن

(١) الغرافيتي هو رسم أو كتابة على الجدران في الأماكن العامة.

الإخوة «بواتنغ»[١] Boating. الغرافيتي مرسوم فوق أحد الجدران عند ناصية شارع بادشتراسه وبانك شتراسه، وتقرأ فيه: «كبروا فوق الأسمنت»، لكني لم أستطع أن أجد مكانًا قريبًا لإيقاف السيارة، كما لم أفكر أبدًا في أن أبحث عن مكان، فأنت في برلين عليك أن تذهب مبكرًا إلى عملك وإلا وجدت نفسك عالقًا في ازدحام المرور. يشكل المسافرون يوميًا إلى برلين من براندبورغ وساكسونيا ـ انهالت جزءًا من مشاهداتي اليومية منذ أن سكنت في حي جاتوف.

ففي الساعة الخامسة والنصف صباحًا يمتلئ شارع هيرشتراسه المؤدي إلى وسط المدينة بالحركة، وتسأل نفسك متى استيقظ كل هؤلاء الناس الذين تحمل سياراتهم لوحات بحروف[٢] HVL أو OHV.[٣] أحب منطقة ڤيدينغ. الناس في ڤيدينغ غرباء كحالي في كاليفورنيا. لا يفهم أصدقائي كيف يمكن أن أقارن حالي بحالهم. يقولون: ولكنك تجيدين التحدث بالإنجليزية. كأنما يكفي هذا. إتقان اللغة هو أقل متطلبات التعايش في الغربة. ففي الغربة يغيب نظامك الملاحي الداخلي بأكمله: ما يقرأه الناس هناك، ما يأكلونه، ما يشاهدونه، ما يقولونه. أنا لا أعرف ما يتحدث عنه من هم في

---

(١) الإخوة: «غيروميه بواتنغ» و«جورج بواتنغ» و«كفين ـ برنس بواتنغ» لاعبو كرة قدم مشهورون في ألمانيا. (المترجمة)

(٢) HVL تدل على أن السيارة تخص شخصًا يقيم في منطقة هافل لاند في مقاطعة براندنبورغ. (المترجمة)

(٣) OHV تدل على أن السيارة تخص شخصًا يقيم في منطقة أوبرهافل التي تقع في الجزء الشمالي من مقاطعة براندنبورغ. (المترجمة)

مثل عمري في كاليفورنيا. أعرف فقط ما لا يتحدث عنه الأجداد الصينيون والمجريون والهنود المتواجدون في ملاعب الأطفال في وادي السيليكون. الوادي هو بابل. لكن أبراج بابل موجودة في مكان آخر.

برلين

أختار دائمًا نهر الهافل لحرف الهاء عندما ألعب لعبة «مدينة، بلد، نهر»، كنت أفعل ذلك منذ عشرات السنين قبل أن أرى النهر لأول مرة. للأسف لا يعطيك اختيار نهر الهافل أكثر من خمس نقاط في العادة، فاللاعبون الآخرون يختارونه أيضًا. كثيرة هي المدن التي تبدأ بحرف الهاء، لكن الأنهار قليلة. من الظلم أن تحصل على خمس نقاط فقط لأن الهافل نهر مثالي، خاصة في المنطقة بين شپانداو حتى هافلبرغ. أصبحت، بعد سبع سنوات من الإقامة على ضفة الهافل، أعرف كل ساق نبات ينمو في الماء أو على الأرض في المنطقة بين غاستوف وپوتسدام، إنه شعور لا يوصف، أن تقود زورقًا بخاريًا صغيرًا في أحد الأيام وتبحر في الصباح الباكر وسط العاصمة لتراقب الطيور والأشجار. إن هذا المنظر الطبيعي متناغم تمامًا حتى أنه يخفف من حدة عدم اليقين الذي يصاحب الحياة في برلين. أبحر بالزورق بين جزيرة بفاو وضفاف منطقة كلادوف حيث توجد حديقة بيت «د. ماكس فرانكل»[1] الريفي، ثم أرسو في منطقة

(١) تقع حديقة بيت الاقتصادي د. «ماكس فرانكل» الريفي في منطقة كلادوف في=

ساكروفر لانكه حيث يقيم أصدقاء لي، إنها رحلة ساحرة. أنظر في كل مرة أبحر فيها إلى معمل الألبان فوق الجزيرة، فربما لمحت «ماريا دوروتيا شتراكون» Maria Dorothea Strakon بطلة رواية «توماس هتش» Thomas Hettche «جزيرة الطواويس»[1].

انتقلت دار نشر «زوركامب» في عام ٢٠١٠ إلى برلين. انتقلت من الجمهورية التي كانت عاصمتها بون إلى الجمهورية التي أصبحت عاصمتها برلين. كان ذلك قرارًا ذكيًا. لم أكن أرغب في الانتقال، ولكني ذهبت معهم بالرغم من ذلك. تصورت أن الحياة في برلين أبسط من ذلك. شعرت بالأسف لمغادرتي فرانكفورت التي كانت مسقط رأسي. شكلت لي فرانكفورت في شبابي أحد المراكز الثقافية في ألمانيا الغربية. فالمدينة بها معرض الكتاب الدولي وبورصة صناعة النشر الألمانية التي تمثل الصناعة وبيع الحقوق أيضًا، كما توجد بالمدينة دور نشر «زوركامب» و«إس فيشر»، ودار نشر «إنزل» اليهودية، وعدد من دور النشر الأصغر

=برلين. اشترى د. فرانكل الأرض المقام عليها الحديقة والبيت في عام ١٩٢٠ وكلف مصمم الحدائق المعروف «إرڤين بارت» Erwin Barth (١٨٨٠ ـ ١٩٣٣) بتصميمها. هاجر د. ماكس فرانكل في عام ١٩٣٣ من ألمانيا، وفي عام ١٩٣٨استولى النازيون على الحديقة والأرض، ثم أهملت الحديقة بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن توحدت ألمانيا فعادت الحديقة مرة أخرى إلى سابق عهدها. (المترجمة)

(١) «جزيرة الطواويس» Pfaueninsel رواية للكاتب الألماني «توماس هتشن» Thomas Hettchen تدور حول جزيرة على ضفة نهر الهافل في برلين ويحكي فيها عن تاريخ قرن بأكمله من منظور بطلة الرواية «ماريا». (المترجمة)

المستقلة، كما أن بها معهد الأبحاث الاجتماعية ومعهد زيغموند فرويد، ثم أصبحت فيما بعد مقرًا لمعهد «فريتس باور». هكذا شكلت المدينة مركز ثقل في الفلسفة والعلوم الاجتماعية والدراسات الخاصة بالهولوكوست، كما كانت مركز ثقل في صناعة النشر. والآن العاصمة. دخلت، بعد ثماني سنوات من قدومي إليها، ستوديو لدق الوشم لأول مرة في حياتي. كان يمكن أن أقوم بذلك في برلين في وقت أبكر، فحدود الثقافة الراقية هنا ليست صارمة. ستدهشك السرعة التي يحدث بها الانحدار بمجرد ما تترك منطقة دور الأوبرا والمتاحف والمسارح وتتواجد وسط الثقافة البرلينية اليومية وطرق تواصلها. مساحة الإبداع في برلين أكبر من المساحة الموجودة في أي مدينة كبرى أخرى. جلست بعد عودتي من كاليفورنيا في مارس ٢٠١٨ في مكتبي في دار النشر وشعرت بالشوق إلى الأحفاد لدرجة مؤلمة للغاية حتى أني فكرت أني أود لو أحتفظ بهما فوق جلدي. ضحكت وقلت لنفسي إن الرغبة في دق الوشم تتكون بهذه الطريقة أيضًا. يجب أن يحرق الشوق الجلد. كما أني أردت أن يرى الأحفاد مدى قربهم مني، أن مكانهم فوق جلدي، إلى الأبد. بدأت البحث عن ستوديو وشم مناسب. نصحني مصفف الشعر الذي يذهب إليه أحد الأصدقاء بستوديو يديره «ميركو ب» في شارع ڤيكستشراسه. قال لي «ميركو ب» بعد أن تشاورت معه: «إنك تشجعينني على التقدم في السن.» والآن تزين أول حروف أسماء أحفادي أعلى ذراعي، حروف صغيرة وأنيقة. لم يؤلمني دق الوشم كما تخوفت. لكني قضيت ساعات بعد ذلك وقد

تصاعد لدي معدل الأدرينالين، وفهمت السبب في ممارسة بعض الشعوب البدائية لطقس الوشم بين طقوس القبول في الجماعة.

كثيرًا ما شعرت في برلين بنفس الغربة التي شعرت بها في مينلو بارك وبيركلي. إنه بالتأكيد خطأي أنا وأعفي برلين من أي ذنب، فأنا أحتاج إلى الهضاب الموجودة في جنوب غرب بلادنا، أحتاج إلى مزارع الكروم والقرب من فرنسا. لا تملك برلين أيًا من ذلك. يحب أصدقائي برلين، يحبها كل من ولد فيها، سواء في القسم الشرقي أو الغربي منها، ويحبها كل من هاجر إليها من شتى أنحاء البلاد ومن شتى أنحاء العالم. تجتذب هذه المدينة البشر الذين لا تخيفهم فظاظتها والقادرين على استغلال فضاءها الحر للإبداع.

استعدت منذ خريف عام ٢٠١٨ بطاقة استعارة الكتب في مكتبة الحي، والحي هذه المرة هو حي كلادوف في أقصى الجنوب الغربي في المدينة. لم أكن أملك بطاقة استعارة كتب لمدة خمسين عامًا، فالكتب كانت متاحة لي دائمًا لأني موظفة في أحدى دور النشر، كما أني كنت أشتري الكتب كل يوم سبت من المكتبة القريبة. فوق بطاقتي شعار اتحاد المكتبات العامة في برلين VÖBB. البطاقة سارية أيضًا في بعض مكتبات الأحياء الأخرى. لكن هذا ليس عمليًا نظرًا لحجم المدينة الكبير، وفي حالتي ليس ضروريًا، فقد أصبحت حريصة على عدم إضاعة الوقت. كان يكفي أن أذهب من غاتوف إلى كلادوف: أركن دراجتي الهوائية وأدخل المكتبة - فيحضر السحر من جديد: سحر الكتب المصنفة في أقسام. تصورت

أن الأمور بهذه البساطة، فما علي سوى استعادة العادات القديمة! أستعير كتاب لا أعرفه بعد أو كتاب أريد إعادة قراءته. استعرت رواية «بول أوستر» Paul Auster «٤٣٢١». الجو العام في قاعات المكتبة في كلادوف؛ الموظفات اللاتي يجسدن شيئًا خارج الزمن لأن استعارة الكتب وإعادتها أصبحت رقمية، ؛ الذكريات عن الفترة من ١٩٦٠ وحتى ١٩٧٢ في مكتبات استعارة الكتب في فرانكفورت التي تديرها البلديات والمكتبات الأخرى التي تديرها الكنائس: كل ذلك يعمق نفس الإحساس الذي أشعر به أيضًا في الحفلات الموسيقية وفي الأوبرا وفي المسرح وفي معارض الفنون: شعور بكم المعرفة والابتكار والإحساس بالأمان الذي تمثله الثقافة التناظرية. في كل المجالات ولكل الفئات العمرية.

سان فرانسيسكو/بيركلي

حصلت في ربيع عام ٢٠١٩ لأول مرة في حياتي على بطاقة خاصة بكبار السن، كان ذلك في فرع مترو «باي رابيد ترانزيت أريا» الموجود في مطار سان فرانسيكو. كان لدي بعض الوقت قبل أن تقلع طائرتي في رحلة العودة، فأخذت أتفحص العروض التي تقدمها شركة المترو باهتمام. سألتني السيدة في الكشك عما إذا كنت قد بلغت عامي الخامس والستين. أجبت: «لا، ليس بعد »، ثم أضفت بنبرة فخر: «ولكني سأصبح في الخامسة والستين عندما أعود في أغسطس لأحضر أول يوم لحفيدتي في المدرسة.» اشتريت بناء على نصيحتها تذكرة خاصة بكبار السن بتسعة دولارات والتي تغطي تكاليف الانتقالات حتى أربعة وعشرين دولارًا. نشرت البطاقة على مجموعة الواتس آب الخاص بالعائلة والأصدقاء وأنا أشعر بالفخر. قال أصدقائي: *إنك مواطنة عالمية*. يعجبني هذا الوصف. هذا ما أردته دائمًا مثلما أردت أن أعمل في دار نشر. سمح لي العمل في صناعة نشر الكتاب وتوزيعه بالسفر إلى بلاد كثيرة جدًا. جذوري في جنوب غرب بلادنا، في فرانكفورت على الماين، في هايدلبرغ وفي مانهايم، في تاونوس، في منطقة الراينغاو والراينلاند

بفالتس وهوفهايم ـ ڤيلدزاكسن. عندما أجلس عند مقبرة زوجي في ڤيلدزاكسن في هوفهايم، أشعر أني أضرب بجذوري في هذا المكان لدرجة أنني أعجز عن النهوض من جديد. الجذور ضاربة بعمق في الأرض. كثيرًا ما أفضل ألا أنهض من مكاني وأن أشعر بالجذور داخلي. لم أتقدم في السن سويًا مع زوجي. ولكني كبرت في السن مع «مايكل دوغلاس»، لكن «مايكل دوغلاس» لا يعرفني. أنهيت مؤخرًا مشاهدة ثلاثة مواسم من مسلسل «طريقة كومنسكي»، وتذكرت أني قد تابعت بانتظام حلقات مسلسل «شوارع سان فرانسيسكو» في القناة الثانية الألمانية منذ عام ١٩٧٤ وحتى ١٩٧٧. ثمة ألفة غريبة تشكلت مع «مايكل دوغلاس»، بأثر رجعي إذا جاز هذا التعبير. لم أكن قد زرت الولايات المتحدة الأمريكية بعد عندما شاهدت قبل خمسين عامًا المسلسل الذي صور في هذه المدينة على الساحل الغربي الأمريكي. ولكني الآن أعرف سان فرانسيسكو جيدًا. اصطحبت معي دراجتي الهوائية عندما ذهبت لزيارة المدينة لأول مرة قادمة من مينلو بارك، وركبت قطار كالترين Caltrain. هنا عرفت ما كان ينبغي أن أعرفه: أنني لا أستطيع أن أقود دراجتي في معظم تلك الشوارع صعودًا أو هبوطًا، خاصة هبوطًا. فكل الشوارع حادة الانحدار. ولكن كان باستطاعتي قيادة الدراجة حتى المحيط الهادئ بدون مواجهة مرتفعات عالية فقط إذا سرت غربًا في شارع ماركت ستريت مرورًا بشارع فيل ستريت أو شارع فلتون، ثم أسير في خط مستقيم عبر حديقة غولدن غيت. تستطيع، بمجرد ما تصل إلى هناك، رؤية جسر غولدن غيت وحديقة بريزيديو في الشمال

الشرقي وأحياء ميشون وكاسترو في الجنوب الشرقي. يبدو جسر «جولدن جيت» جميلاً فقط إذا نظرت إليه عن بعد، على عكس العملاق المزيف «تورتور» Turtur في قصة «چيم كنوپف وسائق القطار لوكاس»[١] فالجسر يبدو عن قرب مخيفًا، في عام ١٩٨٠ انتحرت الممثلة «كريستين شرودر» قفزًا من فوقه. لم تكن هي الوحيدة التي انتحرت من فوق هذا الجسر الذي يبدو وكأنه يشجع ذوي الميول الانتحارية على الانتحار. ركبت ذات مرة الحافلة لأعود إلى محطة قطار كاليفورنيا وكان علي أن أركن دراجتي في مقدمة الحافلة بنفسي. استغرق الأمر مني ثمانية دقائق شعرت فيها بالإحراج، في حين كان سائق الحافلة والركاب ينتظرون في لطف. لو كنا في أوروبا لكان الناس قد بدأوا في الصياح، ولكن الأمريكان أكثر من قابلتهم صبرًا. نفس الإحراج شعرت به عندما كان راكبو الدراجات الهوائية، الأكبر مني سنًا والأكثر لياقة بدنية بشكل واضح، يتخطوني في حديقة غولدن غيت ويصيحون في لطف وحسم: «انتبه للدراجة إلى اليسار» Bike on the left، وأنا لم أكن أملك إلا أن أتابعهم بنظري وهم يتخطوني. لكني استطعت الثأر لنفسي بعد عدة أسابيع عندما تخطيت مجموعة من السائحين كانوا

(١) «جيم كنوپف ولوكاس سائق القطار» قصة للأطفال كتبها الكاتب الألماني «ميشايل انده» Michael Ende وتدور حول رحلة بالقطار يذهب إليها السائق «لوكاس» مصطحبًا شريكه «جيم كنوپف». تبدأ القصة وتنتهي في جزيرة خيالية. وشخصية «تورتور» في القصة هي عملاق مزيف، فهو يثير الخوف عندما تنظر إليه عن بعد، ولكنه طيب القلب ومتواضع وخجول إذا تقربت منه. (المترجمة)

يقودون دراجاتهم الهوائية في المنتزه فوق مرتفع مرعى البيسون الكبير، ربما كانوا سائحين من ألمانيا؟ أطلقت جرس الدراجة وصحت: «انتبه للدراجة إلى اليسار». التظاهر بالاندماج في المجتمع.

تذكرت «پاول» فجأة وأنا أتجول داخل حديقة بيونا فيستا، «پاول» كان زميلي في المدرسة وقال لي ذات يوم: «سنذهب إلى سان فرانسيسكو بمجرد ما نحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.» كنا، أنا وهو، نبلغ آنذاك الرابعة عشرة، شعرت بالسعادة، ولكني كنت واقعية رغم ذلك، فقلت إني سوف أسافر بعد شهادتي الثانوية إلى فرنسا. انتقل «پاول» إلى الجنوب ودرس الرياضيات وأقام لفترة في دير خاص بطائفة الزن حيث تعرف على زوجته. ويعيش الاثنان الآن في هولندا ويعيش أبناؤهما في نيويورك. شعرت بشكل ما أن الآخرين أكثر قدرة مني على الهجرة إلى بلاد أخرى. ظهر «پاول» قبل اثني عشر عامًا فجأة في جناح دار «زوركامب» في معرض فرانكفورت وسأل عني. دار بيننا حديث جميل. لم يتغير شيء. كان ما زال مبدعًا ومنفتحًا على التغيرات وأنا ما زلت غير ذلك. على الإطلاق. بدا الأمر وكأننا عدنا إلى عام ١٩٦٨ ونجلس بعد انتهاء المدرسة في الحافلة و«پاول» يحكي لي عن كل ما يمكن تحقيقه، أنا كنت آنذاك أميل إلى تصديقه، لكن لم يكن أي شيء من كلامه ينطبق علي.

أكبر فجوة بين الأغنياء والفقراء في المدن الأمريكية تجدها في

سان فرانسيسكو. هذا واضح لأي شخص عادي يتجول في المدينة. بيوت ثمنها ثلاثين مليون دولار، ويعلن عنها تحت شعار «فرزاتشي يلتقي بفرساي». ولكن في نفس الشارع وبعد مربع سكني واحد تجد المشردين الذين يعيشون في خيام، إنهم جزء من عشرة آلاف مشرد في المدينة. يلجأ سكان الشارع إلى المسؤولين عن الأمن ليخلوا الشارع من المشردين، ثم يزرعون النباتات الكبيرة في أحواض كبيرة على الأرصفة. فينتقل المشردون إلى مكان أبعد. يكبر وادي السيليكون ويتمدد أكثر فأكثر ويتحول إلى مدينة، فالغابات تختفي لأنها تتعرض للحريق بشكل منتظم في جنوب وشمال خليج سان فرانسيسكو. يعبر نصب «الرواد» التذكاري في شارع فلتون عن العصر الحالي أفضل تعبير، ربما بشكل أفضل من أي وقت مضى. فالمدينة تعيد ابتكار نفسها من جديد ـ بدأت بحمى الذهب ثم بناء السكك الحديدية وانتهت الآن إلى الذكاء الاصطناعي، ثم سيأتي شيء آخر غير معروف لنا بعد.

عندما تأكد أبنائي أنهم سينتقلون من مينلو بارك إلى بيركلي، اصطحبوني إلى يوم «البيوت المفتوحة» Open Houses، وهي طريقة أمريكية لبيع العقارات: تفرغ البيوت المعروضة للبيع تمامًا من محتوياتها ويقوم السماسرة بإعادة تأثيثها من جديد وفقًا لذوق الجمهور المستهدف ثم يعرضونها للبيع. قررت، بعدما شاهدنا البيت الثالث، الذهاب مع حفيدتي إلى أحد ملاعب الأطفال في بيدمونت، وهو ملعب محاط بالكثير من أشجار السيكويا. أخذنا

نغني سويًا أغنية عابرة للأجيال: «*ما هي تلك الأشجار التي تتنزه وسطها الأفيال الكبيرة دون أن تصطدم ببعضها البعض.*»(١) لاحظ أحد السماسرة قبل ذلك بقليل لهجتي الألمانية وتوجه لي بالحديث. ولد والده في فرانكفورت على الماين وفر مع أهله في عام ١٩٣٣ إلى كاليفورنيا وكان ما زال صبيًا. تحدث السيد «روزنتسڤايغ» عن فرانكفورت كأنه يعرف كل شارع فيها في حين أنه لم يذهب إلى هناك سوى مرة واحدة بدعوة من القسم المختص بالثقافة الحضرية. لكنه قال إن والده كان يتحدث يوميًا عن فرانكفورت، فهو لم ينجح في الوصول إلى كاليفورنيا بشكل حقيقي أبدًا، لكنه لم يعد إلى ألمانيا أبدًا أيضًا. يجعلني هذا الكلام أعود بأفكاري إلى صديقي وزميلي الإسرائيلي «أوري ليف» Uri Lev. فوالده أيضًا لم يكن يشعر بالراحة في حيفا التي فر إليها، وكان يتحدث طوال الوقت عن «ليمبرغ». أما ابنه، الذي نال كفايته من الشكوى المستمرة، فقد قرر أن يهجر العائلة في سن الرابعة عشرة ليعيش في كيبوتس ميزرا. تزوج «أوري ليف» فيما بعد حفيدة مؤسس الكيبوتز «روت»، ولهم اليوم أربعة أبناء وسبعة أحفاد، ويعيشون جميعًا في الكيبوتز. كم أحسدهم. إن الكيبوتس هو بكل تأكيد الطريقة المثلى لتجنب الحب عن بعد.

كانت أمي وخالتي تتحدثان عن مدينة غدانسك وطفولتهما في

---

(١) Was müssen das für Bäume sein, wo die großen Elefanten spazieren gehen, ohne sich zu stoßen? أغنية ألمانية للأطفال (المترجمة)

منطقة شونبيك، كانتا تحكيان عن متجر المواد الغذائية المستوردة الذي يملكه الأبوان والنزل الذي كانا يديرانه في الشتاء، كما كانتا تتحدثان عن ذهابهما إلى الكنيسة في مايسترسفالده وسنواتهما في المدرسة الداخلية التي تديرها راهبات طائفة الأورزولين.

رفضت كلتاهما العودة إلى غدانسك بعد فرارهما منها في عام ١٩٤٦، وظلتا ترفضان العودة إلى هناك لعقود طويلة، وفشلت كل جهود أزواجهما والابنة الوحيدة التي هي ابنة الأخت الوحيدة أيضًا لإقناعهما، واضطر أبي إلى إلغاء رحلة بحرية من مدينة لوبك إلى مدينة غدانسك كان قد حجزها كمفاجأة لهما. ولكن وقبل أن تتوفى كلتاهما بستة شهور، أعلنت كل منهما على حدة أن هذا هو الوقت المناسب للعودة إلى الوطن بالرغم من أن ولا واحدة فيهما كانت في ذلك الوقت في حالة جسمانية تسمح بالقيام بتلك الرحلة. أحضرت خالتي ثم أمي من مانهايم وكرونبرغ في منطقة تاونوس إلى برلين لأتمكن من رعايتهما بنفسي في خلال السنوات العشرة التي عملت فيها هناك. اقترحت القيام برحلة إلى غدانسك، إلا أن خالتي خدعتني وماتت في هدوء وسلام في سن الأربعة والثمانين عامًا في برلين في ميدان «فازان»، كانت مدخنة شرهة. أما أمي فقد تصرفت بحكمة وتمنت أن تدفن عند بحر البلطيق ـ هكذا خططت أن تعود أخيرًا إلى غدانسك، وتحقق لها ذلك عندما أصبحت في الواحدة والتسعين من عمرها. قضت أمي آخر ستة شهور من حياتها معي في غاتوف في برلين ومعها خريطة لمدينة غدانسك اشتريتها من محل الأنتيكات «دوزل» في سوق «جندارم».

أصبحت عضوة في مكتبة كلادوف العامة لاستعارة الكتب، ولكن عضويتي لا تقتصر على تلك المكتبة فقط، فأنا وأحفادي أيضًا أعضاء في المكتبة العامة في مقاطعة كونترا كوستا التي تقع على التل فوق بيركلي بجانب حديقة تيلدن الإقليمية. يتاح للأطفال هناك اللعب والرسم والقراءة، كما يمكن أن يقرأ لهم أحد الكتب. يمكن لأي شخص يستطيع كتابة اسمه بنفسه ودون مساعدة أن يصبح عضوًا في هذه المكتبة. تلك هي إحدى اللحظات التي نحب الحياة من أجلها: أن نصطحب الأحفاد إلى الحفلات الموسيقية ومكتبات الاستعارة. أستعير الجزء الثاني من خطابات «سيلفيا بلاث» Sylvia Plath التي كتبتها من ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٣. صدر هذا الجزء مؤخرًا في طبعة ضخمة مبهرة مع مقدمة مؤثرة كتبتها ابنتها «فريدا هيوز»: Frieda Hughes.

يقع مطعم «كنغستون» فوق التل بين بيركلي هيلز وبين حديقة تيلدن الإقليمية، ويزدحم في الساعة العاشرة طوال أيام الأسبوع بكبار السن الذين انتهوا لتوهم من رياضة المشي. يقدم المطعم قائمة إفطار بها ستة عشر طبقًا مختلفًا من البيض. طبقي المفضل هو «أومليت فيرنزا»، المحشو بالسبانخ والفطر. يتقدم نحوي رجل جذاب ويسأل: «هل يمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟ هل اسمك «سيندي»؟» وأجيب: «لا، للأسف.» ألتقط أنفاسي لأحكي له أن أبي قد أطلق علي اسم «سيندي» وأنا طفلة وأنه كان يغني لي أغنية «أوه سيندي، أوه سيندي»، لكن السيد كان قد ابتعد معتذرًا. كان أبي يغنى تلك الأغنية في نسختها الإنجليزية للمغني «إيدي فيشر

Eddie Fisher في عام ١٩٥٦، كما غناها أيضًا في نسختها الألمانية للمغنية «مارغوت إسكنس» Margot Eskens. كلمات الأغنية بالألمانية مختلفة قليلاً، فهي تقول إن «سيندي» المسكينة هجرها رجل ما. أما الأغنية التي غناها «إيدي فيشر» فكانت كلماتها على العكس من ذلك تتوسل إلى «سيندي» أن تظل مخلصة له عندما يجند في القوات البحرية. في هذه الأثناء كان السيد الذي توجه بالحديث إلي في «كنجستون» قد غادر المطعم. هذه الفتاة «سيندي» بها شيء مأساوي، أنا لست هكذا، ولا أي امرأة أخرى هكذا أيضًا. أركز انتباهي على الأومليت وعلى النسخة الإلكترونية من جريدة «زودويتشه تسايتنوغ» التي صدرت في اليوم السابق والتي أصبحت، بسبب فرق التوقيت الذي يبلغ تسع ساعات، متاحة لقراءتها في الصباح مع الإفطار بدلاً من قراءتها في المساء، تمامًا كما يحدث مع توقيت بث برامج «جريدة اليوم» و«الموضوعات اليومية». كل شيء يحدث في الصباح. أفضل شيء مع فرق التوقيت أنك تستطيع أن تجد كل المعلومات الخاصة باليوم التالي متاحة في الصباح، وستعلن نتائج مباريات الدوري الألماني في شريط الأخبار يوم السبت.

لا يعتبر دخول الأطفال المدرسة حدثًا يستدعي الاحتفال الكبير في الولايات المتحدة، في حين أصبح هذا الحدث احتفالاً عائليًا ضخمًا في ألمانيا، تمامًا كما كان في ألمانيا الشرقية، وقد بدأ عدد الناس الذين يحتفلون به يتزايد باستمرار. إنه أمر مثير للدهشة لأن

أعياد ميلاد الأطفال والمناسبات الأخرى يُحتفل بها في الولايات المتحدة بطريقة مبالغ فيها وتشجع على استمرار دوران عجلة الاستهلاك. يقوم بعض الآباء بالتقاط الصور في فناء مدرسة «آرت ماغنت» العامة في بيركلي، عدد الأجداد الحاضرين قليل. بدأت أكبر حفيداتي الدراسة رسميًا، واطمأننت إلى أن فردًا آخر في العائلة قد بدأ طريق التعلم، فطرت عائدة إلى ألمانيا لأقضي آخر خمس وسبعين يومًا لي في دار «زوركامپ». يقترب موعد معرض فرانكفورت للكتاب، إنه المعرض الأربعون بالنسبة لي.

في بداية الستينيات، كانت أمي تؤجر غرفتي أحيانًا لزوار المعارض، وكان الإيجار يشمل الإفطار أيضًا. كان الزوار يأتون في الربيع والخريف من بلاد بعيدة. ذات مرة وضع زائر هندي سلة مستديرة في الغرفة. شعرنا أنا وأمي بالخوف الشديد من أن يكون بالسلة ثعبان فيهرب منها. وفي وقت ما، جاءت السيدة «هنسكه» من لوبك، والتي أصبحت للأسف الشديد صديقة لأمي، ومنذ ذلك الحين أصبحت السيدة «هنسكه» تحتل غرفتي مرتين في العام إلى أن باعت تجارتها لاستيراد الأقمشة والسيراميك من دول إسكندينافيا. في كل مرة تأتي فيها إلينا، كانت تهديني فستانًا صنع في فنلندا، ولم أكن أرتديه إلا في الأيام التي كانت تزورنا فيها، فلا أحد في فرانكفورت كان يرتدي مثل تلك الفساتين، خاصة في منطقة بورنهايم في فرانكفورت.

حضرت معرض فرانكفورت لأول مرة في عام ١٩٧٠، وكنت

آنذاك ما زلت تلميذة في المدرسة. تغير توقيت افتتاح المعرض منذ عام ١٩٧٣ ليصبح في نفس توقيت بداية الفصل الدراسي. هكذا كنا نسرع، نحن طلبة الآداب واللغات الرومانية، في آخر يوم للمعرض إلى أجنحة دور النشر الفرنسية والإسبانية والإيطالية لنشتري الكتب بأسعار مناسبة. ثم أصبحت منذ عام ١٩٨٠ وحتى ٢٠١٩ أقف على الجانب الذي كنت أراه «الجانب الصحيح» بالنسبة لي، وأحمل بطاقة خاصة بالعارضين. لم أتخلف عن حضور أي معرض أبدًا، فأنا المسؤولة عن الحقوق وعقود الترجمة، ولهذا كان موعد المعرض أهم تاريخ في السنة بالنسبة لي. إنه تجمع لأعضاء نفس الرابطة ـ مثلما كان الحال في العصور القديمة أو في العصور الوسطى. نلتقي بمعظم الزملاء الأجانب مرة واحدة في العام ـ هذا هو أفضل ما في مهنتي. لم يتغير ذلك في عصر التواصل الرقمي. فمن الضروري أن نلتقي، من الضروري أن نلتقي فعليًا، وليس فقط من خلال الشاشات ـ هذا ينطبق على أحفادي كما ينطبق على زملائي الموزعين على مائة وسبعين بلدًا.



العمل عن بعد

توجد دراسات اجتماعية عن الهجرة وعن السياحة. لكني لا أعرف إذا كانت ثمة كتب علمية مهمة تتناول طبيعة رحلات العمل. أود لو أعرف أكثر عن ذلك وأقرأ أكثر عن التغير الذي يطرأ على إدراكنا لمفهوم البعد في أثناء الرحلات الخاصة ورحلات العمل. لا أعتبر المدة التي أقيم فيها في كاليفورنيا لدى عائلتي هجرة، وإنما هي مجرد مشاركة غير مباشرة في تجربة الهجرة. لذلك أميز بين ثلاثة أنواع من السفر اختبرتها كلها، وكانت كلها بالنسبة لي رحلات لا يمكن الجمع بينها تحت مسمى واحد: سفر إلى العائلة التي تقيم في الخارج، سفر خاص بالعمل، وسفر نقوم به لأننا نريد التعرف على بلد آخر أو للاستجمام. إلا أنني لم أفهم أبدًا لماذا يسافر المرء إلى بلد آخر فقط للاستجمام. لهذا كنت ممتنة لأن عملي كان يمثل لي دافعًا للسفر. يمكن أن ألخص مهنتي في نقطة أساسية هي: «نشر وتوزيع المحتوى الأدبي والعلمي في السوق العالمي.» أول مرة أبيع فيها حقوق الترجمة ـ حق ترجمة كتاب باللغة الألمانية إلى لغة أخرى ونشره ـ كانت في عام ١٩٨٠. كنت آنذاك موظفة شابة في إحدى دور النشر. بعت حق الترجمة إلى دار النشر الفرنسية

«غاليمار» Gallimard. كان كتابًا ألّفه الصحفيان «سباستيان هافنر» Sebastian Haffner و«ڤولفغانغ فينور» Wolfgang Venohr بعنوان «شخصيات بروسية» وقد نشر ضمن سلسلة الكتب غير الأدبية في دار نشر «أتينيوم» Athenäum في كونيغشتاين في منطقة التاونوس. كان ذلك ما يطلق عليه حظ المبتدئين، فقد ظهر هذا الكتاب الهام وأصبح من الكتب الأكثر مبيعًا في نفس التوقيت الذي أنهيت فيه دراستي وبدأت أول أيام العمل في دار نشر. كان عقد توظيفي في دار نشر «أتينيوم» وفي مشروع «طبعات المؤلفين» AutorenEdition عقدًا مفتوحًا وكنت مسؤولة عن قسم الحقوق وقسم الصحافة. كان مشروع «طبعة المؤلفين» مشروعًا جماعيًا، «أدباء ينشرون لأدباء آخرين» ويدار من قبل مجموعة شركات «برتلسمان» Bertelsmann، ثم تولت دار نشر «اتينيوم» إدارته منذ عام ١٩٧٨إلى أن توقف في عام ١٩٨٢. نشر العديد من المؤلفين كتبهم في إطار هذا المشروع في الفترة من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨١، فعلى سبيل المثال نشرت كتب لكل من: «هاينر كيپهارت» Heinar Kepphardt و«بيتر توريني» Peter Turini و«أوڤه تيم» Uwe Timm و«پيتر شوتيفيتس» Peter Chotjewitz. في أول يوم لي في العمل، وضع صاحب الدار فوق مكتبي آلة كاتبة كهربائية وصندوقين لحفظ البطاقات. كان أحد الصندوقين كبيرًا وحجمه ضعف حجم الصندوق الآخر ويحتوي على بطاقات عليها عناوين الصحف اليومية والمحطات الإذاعية وأسماء الأشخاص المسؤولين الذين كان علي أن أرسل إليهم نسخًا من الكتب المنشورة ليكتبوا عنها مراجعات. كنت تجد في هذا

الصندوق أسماء مثل «رودولف أوغنشتاين» Rudolf Augenstein، «مارسيل رايش ـ رانيكي» Marcel Reich-Ranicki، «فريتس راداتس» Fritz Raddatz، «يواخيم كايزر» Joachim Kaiser. أما الصندوق الأصغر فكان يحتوي على أسماء ناشرين أجانب يفترض أن تُرسل إليهم الكتب ليدرسوا إمكانية ترجمتها إلى اللغات المختلفة. ابتهجت لأني عثرت على أسماء دور النشر الفرنسية والإيطالية التي أصدرت كتبًا لأدباء درست أعمالهم في الجامعة: «غاليمار» Gallimard، «غراسيه» Grasset، «سوي» Seuil، «فيلترينيللي» Feltrinelli، «أيناودي» Einaudi، «موندادوري» Mondadori. لكني عثرت أيضًا على بطاقات مكتوبة بخط اليد وعليها عناوين دور نشر أمريكية شهيرة والأشخاص المسؤولين بها مثل «فارار» Farar، «ستراوس وجيرو» Straus&Giroux، «ألفريد كنوپف» Alfred Knopf، «هاركورت براس چوڤانوڤيتش» Harcourt Brace Jovanovich، «بانثيون» Pantheon، وهي دار نشر أمريكية نشرت أعمال «توماس مان» Thomas Mann و«برتولت برشت» Bertolt Brecht و«أنا زيغرس» Anna Seghers و«هرمان هسه» Hermann Hesse. كنت قد بلغت لتوي السادسة والعشرين من عمري وفكرت أنني أستطيع الآن أن أكتب إلى لمحررين الذين يعملون في تلك الدور الشهيرة وأرشح لهم كتبًا ليشتروا حق ترجمتها إلى الفرنسية والإيطالية أو الإنجليزية! كانت تلك هي المرة الثانية في حياتي التي عرفت فيها ما أريد أن أفعله في السنوات القادمة من حياتي.

قلت لزملائي في الفصل في المدرسة الابتدائية في بورنهايم في فرانكفورت أني سوف أصبح كاتبة، ولكني أعلنت بعد سنة واحدة، عندما أصبحت في الصف الثالث الابتدائي، عن رغبتي في العمل في إحدى دور النشر. ففي ذلك الوقت شرحت لنا المدرسة أن الكاتبة «أستريد ليندغرين»[1] Astrid Lindgren سوف تذهب بمخطوطتها إلى إحدى الدور ـ لم تقل دور نشر، ولم تقل أيضًا دار «رابين ويوغرن» Rabén & jögren ـ وسوف تقابل هناك أشخاصًا سيساعدونها لتجعل من مخطوطتها كتابًا. هذا هو إذن! هذا ما أريد أن أفعله. ركضت بعد المدرسة إلى البيت وقلت لأمي: «أريد أن أصبح شخصًا يساعد «أستريد ليدنغرين» لتصنع كتابًا من نصوصها المكتوبة.» قالت لي أمي وقد اختلطت لديها مشاعر الاهتمام بطفلتها الوحيدة مع عدم فهم لميل الابنة المجنون إلى القراءة: «نعم، هذا ما سوف تفعلينه.» هكذا انتهينا من هذه القضية إلى الأبد، فلم أفكر بعد ذلك أبدًا في أن أصبح كاتبة، مساعدة الأدباء في نشر أعمالهم كان أكثر الأمور إثارة التي سمعت بها، وقد أدركت ذلك وأنا ما زلت في الصف الثالث الابتدائي.

لم يقتصر نجاحي على بيع حقوق الترجمة على كتاب «هافنر» و«فينور»، فقد استطعت في أثناء معرض فرانكفورت في عام ١٩٨٠ إبرام العديد من عقود الترجمة الأخرى مع ناشرين أجانب آخرين.

---

(١) كاتبة سويدية معروفة اشتهرت بكتاباتها للأطفال، خاصة سلسلة الكتب عن «بيبي ذات الجورب الطويل». (المترجمة)

أدرك صاحب النشر ذلك فوسع من مجال اختصاصي ليشمل الحقوق وصياغة العقود مع الأدباء والمترجمين والمحررين، كما أرسلني إلى دورة تدريبية حول «قانون الملكية الفكرية» وأعفاني من العمل الذي كرهته في قسم الصحافة. قام بذلك أيضًا لحماية للدار نفسها. ففي عام ١٩٨٠ ظهرت أول رواية للكاتب الأفريقي «نور الدين فرح» Nuruddin Farah بعنوان «ملكية الدولة» (عنوانها الأصلي «حليب حلو وحامض» Sweet and Sour Milk وعنوانها اليوم «الأخ التوأم») وقامت «إنغه أم أرتل» Inge M. Artel بترجمة الرواية عن الإنجليزية في إطار مشروع «طبعة المؤلف». أرسلت نسخًا من الرواية للعديد من وسائل الإعلام في البلاد، فكانت النتيجة أن ظهر في كل ملحق ثقافي في الجرائد مقال عن الرواية أو ذكر لعنوانها. اضطر الناشر إلى طباعة طبعة ثانية من الرواية حتى قبل أن يبيع نسخة واحدة منها في المكتبات. كانت الطبعة الأولى ثلاثمائة نسخة فقط أرسلتُ منها، وأنا ما زلت موظفة مبتدئة، مائة وخمسين نسخة إلى الصحافة. لم يقل لي أحد آنذاك كم كان عدد النسخ في الطبعة الأولى كما لم يشرح لي أحد أننا لا نرسل إلا نسبة معينة فقط من النسخ المطبوعة إلى وسائل الإعلام. شعرت بالارتياح لإعفائي من العمل في قسم الإعلام لأنه عمل مجهد للغاية، فقد يحدث أن تظل تتحدث مع أحد الصحفيين لمدة ستين دقيقة عن برنامج النشر في الدار، ثم تجد في النهاية مراجعات للكتب بها تقييمات سلبية. لا يمكنك التحكم في ذلك. الوضع في قسم عقود بيع الحقوق مختلف. يحكم عقد الترجمة المكافآت

وطريقة تنفيذ العقد. أما عقود بيع الحقوق فيمكن أن تشمل بيع حق الترجمة لإحدى اللغات الأجنبية، أو حق تحويل الكتاب إلى فيلم، أو حق إصدار طبعة أخرى من الكتاب، أو إصدار كتاب صوتي. لم نكن نعرف في عام ١٩٨٠ شيئًا بعد عن العقود الخاصة بالكتب الرقمية. لقد صاحبني سحر هذه الحرفة المتخصصة في نشر المحتوى عالميًا لمدة أربعين عامًا من حياتي المهنية. إنها حرفة لا تعلن عن نفسها، ومعظم الناس لا يعرفون عنها الكثير، إلا أن تأثيرها يمكن أن يكون كبيرًا على مستوى العالم. فأنت لا تحتاج إلا لنص واحد حتى تستطيع في أحسن الأحوال أن تبرم عقودًا لبيع حقوق ترجمته إلى مائة لغة أجنبية، أو تبرم عقود تحويله إلى فيلم أو مسرحية أو أي شكل من أشكال التمثيل المختلفة: تعتبر سلسلة «هاري بوتر» للكاتبة «جوان ك. رولنيغ» Joanne K. Rowling مثالاً جيدًا يوضح القدرة التسويقية لعقود بيع الحقوق. لكن لم تكن هذه السلسلة قد ظهرت بعد في بداية حياتي العملية. أكثر ما كان يثير إعجابي دائمًا في مجال الحقوق وعقود بيعها كانت تلك الاستراتيجيات المرتبطة به. فيمكنك أن تجد في هذا المجال محتوى لا يناسب إلا فترة زمنية معينة، ولكنك تجد أيضًا موضوعات وأفكارًا في مجال الأدب والعلوم الإنسانية صالحة لكل زمان. شعرت بالتميز لأني أمتهن هذه الحرفة المتميزة التي تتيح لي أن أكون في خدمة هذه الأعمال وأجعلها متاحة في جميع أنحاء العالم على المدى القصير أو البعيد وفقًا لنوعها. كانت فرنسا هي

سوق الكتاب المفضلة لدي ـ بسبب دراستي وبسبب حبي المبكر جدًا لهذا البلد المجاور.

«غرهارد كمپر» Gerhard Kemper، كان كبير مدرسي المواد الرومانية في مدرسة «هاينريش فون غاغرن» الثانوية في فرانكفورت، وكان ينصح التلاميذ بأن يتناولوا إفطارًا مثل إفطار الإنجليز، وغداءً مثل غداء الألمان وعشاءً مثل الفرنسيين، وقف «غرهارد كمپر» ذات يوم أمام الفصل لإعدادنا لرحلة التبادل الطلابي إلى ليون، المدينة التوأم لمدينتنا. كان من المفترض أن نقضي هناك ستة أسابيع نذهب فيهم إلى المدرسة؛ يذهب الصبية إلى مدرسة ثانوية خاصة باللغات القديمة وتذهب البنات إلى مدرسة راهبات القديسة «چنڤيڤ» Sainte Genviève في الحي القديم. شرح د. «كمپر» باستفاضة أن أسلوب التدريس في مدرسة ليون لا يشبه طريقة التدريس في مدرستنا الثانوية. لم تتغير طريقة التدريس في مدارسنا إلا منذ عام واحد فقط عندما أحيل في عام ١٩٦٩ بعض المدرسين الأكبر عمرًا المنتمين إلى الحزب النازي إلى التقاعد المبكر ووظف بعض المدرسين الجدد الذين جلبوا معهم من الجامعة موضوعات جديدة لتدريسها مثل «الجنس والعنف» و«الرأسمالية والخضوع». لم يكن النقاش يتوقف في المدرسة، وكان عدد مجموعات الدراسة أكبر من عدد التلاميذ. إلا أن الأمر لم يكن كذلك في فرنسا بالرغم مما حدث في ١٩٦٨، هذا ما شرحه لنا «كمپر»، وقال إنه يتوقع من تلاميذه في مادة اللغة الفرنسية أن يتكيفوا مع المعطيات هناك. ثم انتقل من

قواعد السلوك إلى الحديث عن العائلات المضيفة. «يجب أن تظلوا مهذبين بغض النظر عما يقوله أفراد هذه العائلات عن الألمان.» كنتُ متحمسة للسفر. ذهبت إلى فرنسا لأني أحببت اللغة ولأني أردت التصالح مع فرنسا. كان أبواي يقضيان الإجازة في كوستا براڤا، وكانا يسافران بالسيارة ويمران عبر فرنسا للوصول إلى هناك وأنا كنت في كل مرة أسأل عن سبب عدم قضائنا الإجازة في فرنسا التي كنت أجدها أكثر جمالاً: منطقة الكامارج ومدينة بربينيا؛ لكن أبواي لم يكونا يتحدثان الفرنسية، وهكذا كنا نسافر بالسيارة الخنفساء، ثم بعد ذلك بالسيارة الفولكس فاغن ١٥٠٠/١٦٠٠ إلى إسبانيا عبر فرنسا.

والآن تمكنت أخيرًا من السفر إلى فرنسا بدون أبوي، ورأيت نفسي سفيرة لبلادنا هناك، أردت أن أكون دبلوماسية وأعطي الفرنسيين الحق في كل ما يقولونه، وأعجبت بموقف الأستاذ «كمپنر». فقد صور بإسهاب الجرائم التي قام بها الألمان في فرنسا. لم يقبل الأستاذ «كمپنر» اعتراض بعض الطلبة الذين قالوا إننا قد درسنا في مادة التاريخ جرائم النازي والهولوكوست والحرب العالمية الثانية. وقال إن حصص التاريخ لا تكفي وحدها لإعدادنا للقاء العائلات المضيفة، ولهذا فإن تعليماته ضرورية. إنه لشرف عظيم أن ترحب بعض العائلات الفرنسية باستقبالنا لمدة ستة أسابيع كاملة ثم لا تمانع في إرسال أبنائها لتستضيفهم العائلات الألمانية في نفس العام الدراسي. لا حاجة لأن يشعر التلاميذ بالخوف، فالأسر

المضيفة لطيفة بالتأكيد، ومع ذلك فلا نستبعد أن يثير حضورنا ذكريات أليمة لدى بعض الفرنسيين الأكبر سنًا؛ وهذا ما لم تهيئنا له حصص التاريخ في المدرسة. تأثرت بكل ذلك وسافرت وقد قررت أن أثير إعجاب الفرنسيين وأن أشرح لهم، بقدر ما تسعفني معرفتي باللغة، أن جيلنا سيعمل جاهدًا حتى لا تحدث حرب أو أوشفيتز(١) أخرى أبدًا.

وقفت الأسر المضيفة ومعهم طلاب التبادل الفرنسيون في محطة القطار وقد أمسكوا بلافتات عليها الأسماء. شريكتي في برنامج التبادل الطلابي كانت تدعى «لوسيت» *Lucette*، وعائلتها كانت تعمل بالزراعة وصناعة النبيذ في منطقة «بوغوليه».(٢) الأم أرملة ولها ثلاثة أطفال. قضى زوجها نحبه في حادث بالجرار الزراعي عندما كانت حاملاً في الطفل الثالث. كانت مدام «مارغان» ***Margand*** تبلغ في ذلك الوقت الثانية والأربعين من عمرها. وزع المدرسون المسؤولون عن التبادل في مدرستي ليون وفرانكفورت الثانويتين التلاميذ على الأسر المضيفة المشتركة في البرنامج وفق الشرائح

---

(١) معسكر اعتقال أوشفيتز بني من قبل ألمانيا النازية في أثناء احتلال النازيين لبولندا في أثناء الحرب العالمية الثانية، ويعتبر من أكبر معسكرات الاعتقال والابادة النازية في ذلك الوقت. سقط معسكر أوشفيتز في عام ١٩٤٥ على يد الجنود السوفييت وأصبح منذ عام ١٩٧٩أحد مواقع التراث العالمي في بولندا. (المترجمة)

(٢) ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ ؟؟

الاجتماعية. فأبناء مديري البنوك في فرانكفورت استضافتهم عائلات مديري البنوك في ليون، وأبناء الأطباء والمحامين والمدرسين، ذهبوا لعائلات تشبههم. كون أبي قد أصبح المدير الإداري لمعرض فرانكفورت للفراء بعدما ترك العمل في نادي السيارات. ولم تكن هذه المهنة موجودة في ليون. هكذا كانت الأرملة في بوغوليه هي الخيار الوحيد المتبقي بسبب عدم وجود تصنيف مشابه لمهنة أبي. لم أستطع النوم في أول ليلة لي في البيت الريفي، فأنا طفلة وحيدة ولم أعتد على مشاركة غرفتي مع أحد. لم أكن أفهم كلام «الوسيت» أو الأم التي استضافتني. بدت كلتاهما ودودة وكان للغتهما وقعًا موسيقيًا. بدت المهمة الدبلوماسية التي سافرت من أجلها بعيدة عن التحقيق وشعرت بالإحباط، بالإضافة إلى ذلك، فلم يكن يوجد هاتف في المزرعة. عشر معزات، اثنتا عشر بقرة، خنزير واحد، دجاج وقطط وكلبة لابرادور سوداء اسمها «ميريت» *Mirette*، اصطحبوني في نفس المساء الذي وصلت فيه إلى المزرعة لمشاهدة قبو النبيذ ومخزن الجبن حيث تحفظ جبن الماعز المصنوعة منزلياً في أثناء مراحل صنعها المختلفة. كتبت لأبوي أنني وصلت سالمة، وكان ساعي البريد سيأتي في عصر اليوم التالي ليأخذ الخطاب معه. وفي صباح اليوم التالي وجدت الجميع في المطبخ: «الوسيت» و«ميراي» *Mireille* و«چيروميه» *Jeromé*، وجاء صوت مدام «مارغان» المنغم عبر المطبخ: «صباح الخير يا صغيرتي» *Bonjour ma petite*. يمكنك أن تساعديني في جني الفاصوليا.» لم أكن أفهم المفردات الخاصة بحياة المزارع، فكان علي أن أبحث طوال الوقت

في القاموس عن معناها. شعرت بالحرج، فأنا حاصلة على ثالث أفضل نتيجة في الاختبار التحضيري قبل بدء التبادل الطلابي. كنا قد قرأنا «الغريب» ل» كامو» Camus في نسخة مبسطة مخصصة للتلاميذ، وتابعنا كل شيء حدث في باريس في عام ١٩٦٨ ، ولكن لم يكن أحد في بوغوليه مهتمًا بأي من هذا. قرأت «لوسيت» «كامو» في المدرسة، ولكنها لم تحبه. أما «ميراي» و«چيروميه» فكانا يذهبان إلى مدارس ثانوية زراعية ولم يكونا يعرفان «كامو» من الأساس. و«ماري مارچان» تركت المدرسة عندما بلغت الرابعة عشرة، فلم تكن تعرف «كامو» كما لم تكن تعرف «سارتر» ولا «سيمون دو بوفوار». حاولت أن أحافظ على هدوئي، فقد أدركت أن الأستاذ «كمپنر» قد درسنا بشكل ما موادًا عن فرنسا لم تكن موجودة في بوغوليه. وبالمثل، لم تكن العائلة الفرنسية تعرف عن ألمانيا إلا القليل، ولم يتحدث أحد عن الحرب أو عن النازيين.. حكى جد «لوسيت»، وهو أحد أفراد الجمهور المستهدف لمهمتي الدبلوماسية، كيف أنه ساعد أحد الجنود الألمان الذي أراد الفرار من الجندية. أو ربما كان ما حكاه شيئًا شبيهًا بذلك، فأنا رغم أني كنت أفهم أكثر مع كل يوم يمر، إلا أني مع ذلك لم أكن أفهم كل شيء، وهكذا ظل للغة الفرنسية التي حاولت تعلمها وقع الموسيقى في آذني، وأكدت الأغاني المذاعة في الراديو للمغنين «جوليان كليرك» *Julien Clrec* و«جان جاك غولدمان» *Jean Jacque Goldamn* و«جوني هاليداي» *Johnny Halliday* و«جورج موستاكي» *Georges Mustaki* هذا الشعور. كانت الأحاديث في عائلة «مارغان» تدور

حول العنب الذي اقترب موعد جنيه، وحول جبن الماعز والجيران والأقارب العديدين وحفلات الزفاف وميلاد الأطفال. تمكنت بعد ثلاثة أسابيع فقط من حفظ أسماء أخوة مدام «مارغان» الثلاثة عشرة وأسماء أطفالهم، كما حفظت أسماء بنات وأبناء العمومة والأخوال لأبناء مدام «مارغان»: «لوسيت» و«ميراي» و«چيروميه»، أكسبني ذلك تعاطف العائلة كلها. تعلمت كيف أخلط المايونيز، وكيف أضيف الليمون وقطعة صغيرة من الزبد إلى الفاصوليا الخضراء. وأصبحت بعد أسبوع واحد مسؤولة عن إعداد الحساء للعشاء وخلط المستردة والمايونيز لصنع صلصة الفينغريت التي كنت أوزعها بين أوراق الخس. كنا نجلس نحن الخمسة في المساء حول المائدة الريفية الطويلة ونشاهد في التلفاز أفلامًا عن الحرب يسيء فيها «البوش» boches[1] معاملة الفرنسيين. لم يربط أي من الحاضرين بيني وبين النازيين ولا بيني وبين الجنود الألمان ـ فأرجأت مهتمي الدبلوماسية إلى وقت لاحق.

صرت أعود إلى بوغوليه في كل صيف بعد تلك الزيارة الأولى، هكذا تمت المهمة الدبلوماسية في المجال السياسي بنجاح. ناسبني ذلك وأراحني. وأصبحنا أنا و«لوسيت» صديقتين مقربتين. كنا نتبادل الزيارات، ولكني كنت أذهب إلى بوچوليه أكثر مما كانت تأتي هي إلى فرانكفورت. كانت فرنسا ببساطة أجمل. بالإضافة إلى ذلك،

(١) اسم أطلقه الفرنسيون على الألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية للتحقير منهم. (المترجمة)

فقد أصبحت «لوسيت» ملكة النبيذ وكان لديها جدول مزدحم. ومع مرور عشرات السنين أصبحت أعرف فرنسا، خاصة باريس، أفضل من أصدقائي في بوچوليه، ولم يكن ذلك يزعج أحدًا هناك. تابعت بانتباه التغير الهيكلي في المنطقة، فقد كان نبيذها يروج له بشكل كبير، في الستينيات وفي السبعينيات على وجه الخصوص، من خلال أسلوب الطبخ الفرنسي الجديد ومن خلال التأكيد على مستوى نبيذ بوغوليه الراقي. ثم تابعت كيف تحولت هذه المنطقة مع بداية الألفية إلى إقليم بلا أهمية. غيّر جميع أقارب «لوسيت» تقريبًا مهنتهم وتحولوا من صناعة النبيذ إلى المهن الاجتماعية أو الإدارة أو السياحة، وأصبحوا الآن يكتفون بإنتاج كميات صغيرة من النبيذ مخصصة فقط للتعاونية المحلية لصناع النبيذ.

لم يكن معرض فرانكفورت للكتاب في عام ١٩٨٠ معرضًا عالميًا حقًا، بدا لنا فقط كذلك، فلم يكن أي منا يعرف شيئًا بعد عن العولمة التي بدأت بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. لم تكن آسيا، باستثناء اليابان، تشارك بشكل حقيقي في مجال بيع حقوق الكتب، كما لم تشارك الدول العربية، ففي الثمانينيات، لم تكن كل الدول قد صدّقت بعد على الاتفاقية الدولية لحماية الملكية الفكرية، وهي الأساس القانوني لبيع الحقوق. أصبحتُ بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ مسؤولة عن الحقوق وعقود بيعها في دار نشر «لوخترهاند» Luchterhand وتعاونت عن قرب مع «غونتر غراس» Günter Grass و«بيتر بيكسل» Peter Bichsel و«بيتر هيرتلنغ» Peter

Härtling و«إرنست ياندل» Ernst Jandl وعملت منذ عام ١٩٩١ مع «كريستا ڤولف» Christa Wolf أيضًا. كان ذلك هو الوقت الذي تغير فيه الوضع تمامًا. فسقوط جدار برلين كان يعني توسعًا في ترجمة الأعمال الأدبية والعلمية الألمانية إلى لغات أوربية أخرى. كانت الترجمات قبل عام ١٩٩٠ كثيرة بالفعل، لكن كان عدد المؤلفين والمؤلفات الذين تترجم أعمالهم ثم تنشر في دور النشر الحكومية محدودًا بسبب تعقيدات الرقابة. وفي التسعينيات، أسس الناشرون في التشيك وبولندا والمجر وبلغاريا ورومانيا ودول البلطيق دور نشر خاصة ومستقلة. كانوا يأتون إلى معارض الكتب في فرانكفورت ولندن ومعهم قوائم نشر خالية ويشترون حقوق الترجمة. يا للفرص العظيمة التي أتيحت آنذاك لدور النشر البريطانية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والإسكندنافية! هكذا أصبح سوق الكتاب نشطًا ومتعدد الأطراف. فكل دار نشر جديدة تأسست حديثًا في وسط وشرق أوروبا كانت تعني اكتساب قراء وقارئات جدد لكل المؤلفين الأوربيين الآخرين. وبعد انتهاء الحروب في البلقان، أي بعد عام ١٩٩٩ على أقصى تقدير، انضمت أيضًا سلوفينيا وكرواتيا وصربيا والبوسنة إلى هذا السوق. لم يكن إبرام عقود بيع الحقوق بمبالغ كبيرة هو الأمر المهم في بداية التسعينيات، فالأهم كان إتاحة مساحة في برامج دور النشر للأعمال التي سوف تضمن الربح على المدى البعيد لكل دور النشر في أوروبا. لا زلت حتى اليوم لا أعرف إذا كان رجال السياسة في بروكسل على دراية بحجم مساهمة المؤلفين والمؤلفات والناشرين والناشرات في إنجاح الاتحاد

الأوروبي. بدأ منذ التسعينيات ناشرون آخرون من آسيا وكوريا في الانضمام تدريجيًا إلى اتفاقية حماية الملكية الفكرية الدولية، وهو ما أدى إلى إعادة هيكلة سوق الكتاب العالمي بالكامل، كما انضم أيضًا عدد من الدول العربية والأفريقية إلى الاتفاقية. هكذا ظهر سوق عالمي مختص ببيع وشراء الكتب الأدبية وغير الأدبية والكتب العلمية وكتب الأطفال، بالإضافة إلى بيع وشراء المحتوى الخاص بالمسرح والفيلم، فأصبح أي شخص قادرًا على التعاقد مع شخص آخر. ظل المؤلفون الذين يكتبون بالإنجليزية في القارات الخمس هم المسيطرون على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وأتى بعدهم في المركز الثاني المؤلفون الذين يكتبون بالإسبانية. أما الآداب الأوروبية الأخرى فكان من الضروري أن تقوم بتطوير نظم التوزيع والتشبيك لديها حتى تجد سوقًا لأدبائها الذين يكتبون بلغات قومية أخرى.

بدأت عملي في دار «زوركامپ» في فبراير ١٩٩٥. وقعت عقدي معهم في ٨ نوفمبر ١٩٩٤ وقدمت استقالتي من دار نشر «لوخترهاند». كان اختصاصي في المقام الأول إبرام عقود بيع حقوق الترجمة. أسس «بيتر زوركامپ» Peter Suhrkamp دار «زوركامپ» في الأول من يوليو من عام ١٩٥٠، وكانت «هيلينه ريتسفيلد» Helene Reitzfeld موجودة بالدار منذ تأسيسها. كانت هي من أنشأت القسم الخاص بالحقوق وعقود بيع الحقوق وأدارته منذ ذلك الحين. قدمني د. «أونزيلد» Unseld في ١٩ سبتمبر ١٩٩٤ إلى السيدة «ريتسفيلد». كان فرق العمر بيننا يبلغ آنذاك أربعين عامًا تمامًا. فأنا

كنت في الأربعين من عمري، والسيدة «ريتسفيلد» في الثمانين. كانت تعمل وتعيش في الدور الثالث في المبنى الخاص بالدار. اشتهرت بأنها أسطورة، وكان ذلك عن حق. فقد كانت هي من تتحكم في قائمة حقوق المؤلفين، ولم تكن تريد أن تشارك أحدًا معلوماتها أو وظيفتها. ولكن السوق كان قد تحول إلى سوق عالمي، فكان عليها أن تتقبل مساعدة الآخرين إذا أرادت تأدية وظيفتها بنجاح. لم يكن ذلك رأيها، وإنما كان رأي الناشر «زيغفريد أونزيلد». تفهمت أنها لا تريد أن تشارك وظيفتها مع أحد. فأنا أيضًا لم أكن لأحب أن يشاركني أحد مثل هذه الإمبراطورية. كان أكثر الأوقات سعادة للسيدة «ريتسفيلد» هو الوقت الذي أغادر فيه الدار يوميًا في الساعة الرابعة تمامًا لأعود من شارع «ليندنشتراسه» في منطقة فرانكفورت ڤست إند إلى بيتي في هوفهايم ـ ڤيلدزاكسن عبر طريق A66 السريع. فذلك كان الوقت الذي تبدأ فيه مواصلة عملها بدون إزعاج وبدون وجود خليفة محتمل لها. كانت تلوح لي لتودعني بود شديد في نهاية اليوم، ولكنها كانت تشعر في اليوم التالي بشيء من الإحباط عندما تراني أدخل في تمام الساعة ٧.٤٥ الدار لألقي عليها التحية بود شديد: «صباح الخير سيدة «ريتسفيلد.» كانت تحضر إلى الدار يوميًا في تمام الساعة ٧.٣٠. ولم يتغير شيء في هذا الطقس طوال السنوات الخمس التي حظينا بها معًا. صحبتني السيدة «ريتسفيلد» في اليوم التالي من بداية عملي إلى الدور الرابع في الدار وقدمتني إلى المحررين. كانوا كلهم رجالاً باستثناء «إليزابت بورشرز» Elizabeth Borchers . لم يرفع معظمهم

عينيه عن المخطوط الذي كان يقرأ فيه، ولم يكن لدي انطباع أنهم مهتمين حتى بتذكر إسمي.

كانت «هيلينه ريتسفيلد» تجلس إلى المكتب الذي يخص «بيتر زوركامپ»، وإلى جانبها قلم رصاص وقلم حبر ودفتر وجهاز ديكتافون. كانت تسجل بصوتها كل يوم ثلاثة أشرطة تتضمن رسائل إلى المؤلفين ومفاوضات بشأن العقود وردود رفض قاطعة لطلبات شراء الحقوق التي لا تحقق ربحًا. كانت الموظفات في قسم النسخ يفرغن ما تسجله على الأشرطة في رسائل ومستندات مرفقة، ولتسهيل عملهن كانت تضيف بقلمها الحبر معلومات فوق غلاف الأشرطة؛ فتكتب في أحد الأعمدة اسم المرسل إليه، وفي عامود آخر طول الرسائل المسجلة: «هاينر هسه» Heiner Hesse ١ ـ ٢٥ سطرًا؛ «جيورجيو ستريلر» Giorgio Strehler ٢٥ ـ ٣٤ سطرًا؛ «ستيفن جويس» Stephen Joyce ٣٥ ـ ٤٢ سطرًا؛ «هانس ماغنوس إنتسنسبرغر» Hans Magnus Enzensberger ٤٣ ـ ٦٣ سطرًا. تحوي رفوف الكتب خلفها كل ترجمات «بريشت» Brecht و«هسه» Hesse و«فريش» Frisch. يحتل هؤلاء الكتاب لديها مكانة مميزة، وهم لذلك خارج المنافسة، ولا تصنف كتبهم وفق الترتيب الأبجدي. يبدأ الترتيب الأبجدي مع الكتب في الرفوف المقابلة لمكتبها: «تيودور أدورنو» Theodor W Adorno... «يوريك بيكر» Jureck Becker... «توماس برنهارد» Thomas Bernhrd. أما ترجمات أعمال الكتاب الجديرة بشرف التواجد في حجرة السيدة «ريتسفيلد»، فكانت تقوم بصفها بنفسها، في حين كانت الإصدارات الأخرى

التي تقع في الحجرة الأخرى، أي تلك الإصدارات التي تبدأ بحرف «سي» C من نصيبي أنا وزميلتي «كلاوديا برانديس» Claudia Brandes لنرتبها. لم يكن من المسموح لنا تسجيل أي شيء في قاعدة البيانات التي أنشأتها بنفسها وأسمتها RITZ1، فقد كان ذلك الحق مقتصرًا عليها فقط. لم تكن نظم تشغيل ويندوز دوس Windows DOS الخاصة باستخدام قاعدة البيانات، واختصارها OA4، سهلة الاستخدام، وكانت قديمة في ذلك الوقت أيضًا، ومع ذلك، فقد سمح لنا هذا النظام بإنشاء مجموعة بيانات مرتبطة بجداول أخرى في الشركة بمجهود قليل نسبيًا. حُفظت عقود بيع الحقوق للخارج في جدول RIZ1، وصُنفت المعلومات فيها وفق «البلد واسم من اشترى الحقوق وعنوان الكتاب وتاريخ بداية العقد ومدته بالإضافة إلى مقدم المدفوعات والمكافآت.» كانت «هيلينه ريتسفيلد» تبلغ من العمر أكثر من ثمانين عامًا عندما طورت أول قاعدة للبيانات في مجال الحقوق وعقود بيع الحقوق في دار نشر «زوركامپ» وأطلقت عليها اسمها، RITZ1، ويدل ذلك على ثقتها الشديدة بنفسها، كما يدل على أنها استبقت التطورات التي حدثت فيما بعد في وادي السيليكون. كانت «هيلينه ريتسفيلد» مبدعة: فقد كانت تتجول وسط أعمال «برشت» و«هسه» و«فريش» و«جونسون» و«كوپن» Koeppen مثلما كان «ڤلاديمير هوروڤيتس»[1] Vladimir Horowitz يتجول وسط سوناتات «سكارلاتي» للبيانو. استطاعت ذات مرة أن تكتب لأحد الناشرين من كوريا الجنوبية قائمة نشر

(١) عازف بيانو أمريكي من أصل روسي عاش منذ ١٩٠٣ ـ ١٩٨٩. (المترجمة)

كاملة ومربحة تتضمن ترجمات أعمال «هرمان هسه»، وفعلت ذلك في نصف ساعة فقط. كانت تلك هي السنوات الأخيرة في عصر الثقافة التناظرية. كنا نشعر بذلك، ولكننا لم نكن نتخيل آنذاك بدقة شكل التغيرات الحاسمة التي سوف تطرأ على أسلوب وطريقة العمل. كان البريد يحمل إلينا في الربيع والخريف من كل عام مئات من قوائم دور النشر في جميع أنحاء العالم، فنستغرق أيامًا طويلة لنستخلص المعلومات المناسبة منها ونحدد الإجابة على السؤال الحاسم: «أي من مؤلفينا يناسب أي برنامج نشر في تلك الدول الأجنبية؟» ما زلت أعتقد حتى اليوم أن النجاح الذي حققناه يعود جزئيًا إلى الساعات الطوال التي كنا نقضيها في تصفح قوائم النشر. وفي المقابل، فإن ضغطة على الزر في عصر الرقمنة توفر الورق وتحافظ على البيئة، ولكنها قد تجعلنا نتسرع في تقييماتنا. فنقرة واحدة قد تجعلنا نمحو ونغفل الكثير من المعلومات. لم يعد تركيزنا في العمل على مدى اتساع مجاله وإنما على صنع فقاعة. أشعر بالأسف أحيانًا لذلك، وحاولت أن أنقذ مجال العمل التناظري الواسع وأنقله إلى عصر الرقمنة.

كان معرض فرانكفورت في عام ١٩٩٥ أول معرض لي بعد أن بدأت العمل في دار نشر «زوركامپ». في أثناء هذا المعرض التقى الناشر «جيوليو أيناودي» Giuglio Einaudi من مدينة تورينو بالكاتب «مارسيل باير» Marcel Beyer لبحث ترجمة عمله «كلاب طائرة» إلى اللغة الإيطالية. كنت في ذلك الوقت قد وصلت إلى المكان الذي أردت أن أكون فيه منذ أن خضت أولى تجاربي في مجال الكتب،

فقد أصبحت في قلب المشهد الأدبي وأعمل في واحدة من أفضل دور النشر في العالم التي وضعت بأعمال مؤلفيها الأساس لسوق كتاب ناجح. كان «زيغفريد» و«أولا أونزيلد» يقيمان مع بداية معرض فرانكفورت حفلاً في منزلهما للناشرين وأصحاب الوكالات الأدبية، وكان ذلك الحفل يمثل أهم حدث في مساري المهني. كان حفل الاستقبال تقليدًا أرساه «زيغفريد أونزيلد» في الستينيات بعد أن أقام لأول مرة في عام ١٩٥٩ حفلاً للنقاد. أما الدعوة التي وجهت لحضور حفل الاستقبال في عام ١٩٩٥ ، فكان عليها أسماء الزوجين «أونزيلد» واسم «هيلينه ريتسفيلد» واسمي أيضًا. كدت أن أفقد الوعي عندما علمت بذلك. لحسن الحظ كانت السيدة «ريتسفيلد» قد أخبرتني كيف أنها شعرت بالرعب ذات مرة في حفل استقبال الناشرين الأجانب بسبب إحدى الموظفات، رغم أنها كانت تأمل فيها خيرًا إلى حد ما. فقد كانت هذه الموظفة تتناول بعضًا من المأكولات المقدمة وفي نفس الوقت تجيب على أسئلة عالم الاجتماع وناشر الكتب العلمية البريطاني «جون طومسون» John Thompson بفم مليء بالطعام. شعرت بالامتنان الشديد للسيدة «ريتسفيلد» لأنها ذكرت ذلك الحادث المؤسف الذي لا يغتفر. عدت بعد انتهاء المعرض من جديد إلى دار نشر «زوركامپ» في شارع ليندنشتراسه في فرانكفورت على الماين. كان مكتبي يقع أمام مكتب «هيلينه ريتسفيلد» ويطل على الفناء. ولكني لم أكن أشعر بالأمان إلا عندما أرى سيارة «زيغفريد أونزيلد» الزرقاء تنعطف لتتوقف في موقف السيارات كل صباح.

نُشر كتاب زوجي بعد عام واحد فقط في ٢٣ أغسطس ١٩٩٦، وكان عنوانه «تاريخ الأدب الإيطالي». أقيم حفل إطلاق الكتاب في ٢٦ سبتمبر وحضر الحفل الأديبان الإيطاليان «لويجي مالريبا» Luigi Malerba و«باولا كاپريولو» Paola Carpiolo، كما حضره المتخصصان في الدراسات الأدبية «ماريا غازيتي» Maria Gazetti و«ڤولف ديتر لانجه» Wolf Dieter Lange. وأثنت الناشرة «انغه فيلترنللي» Inge Feltrnelli على الكتاب.

كانت تلك هي أفضل أيام حياتي: على المستويين، المهني والشخصي، ثم توفي زوجي في عام ٢٠٠١ إثر حادث سيارة. تساءلت عندئذ كيف يمكنني مواصلة الحياة بعد ذلك. يمكن أن أواصل الحياة فوق الأشجار كما فعل البارون في رواية «ايطالو كالفينو» Italo Calvino التي تحمل نفس العنوان «البارون فوق الأشجار». مع الكتب فوق الأشجار. مع النص والاحتمالات المتعددة لاستقباله واستخدامه والاستفادة منه، النص الأدبي والعلمي. إنه عالم كنا فيه أنا وزوجي ذات يوم كيانًا واحدًا لا ينفصل، لكني أصبحت منذ موته وحدي مع كل تلك الأعمال والكتب، وحدي مع قراءتها وتسويقها، وحدي مع ترتيب المكتبات وقراءة الكتب بصوت عال لجيل الأحفاد.

ساعدت العولمة في سوق الكتاب على انتشار معارض للكتب في بلاد غير أوروبية. كانت تلك المعارض كثيرًا ما تدعو الناشرين والمحررين الألمان لأنهم يتمتعون باحترام وتقدير كبيرين. هكذا

بدأت مرحلة نشطة لسوق الكتاب الألماني كثُر فيها السفر إلى أسواق الكتب الجديدة في آسيا والدول العربية والهند وروسيا والبرازيل. لا يمكنني مقارنة سوق الكتاب بأسواق المنتجات الأخرى مثل أسواق مضخات المياه ومنتجات الخزف والصيني والملابس على سبيل المثال، لكن كان لدي دائمًا انطباع أن تسويق المحتوى، سواء كان هذا المحتوى أدبًا أو أدب تسلية أو قصص بوليسية أو أدب أطفال أو كتبًا غير أدبية أو كتب طبخ، يخلق نوعًا خاصًا من التقارب بين شركاء العمل، حتى لو أتى هؤلاء الشركاء من ثقافات مختلفة. محتوى الكتب مرآة للمجتمعات، ودور النشر المستعدة لتحمل تكاليف الترجمات لا تهتم فقط بالمبيعات والأرباح المتوقعة، ولكنها تهتم بالنص الذي يكتبه كاتب ما من بلد آخر وأهميته في المجتمع الذي تنشره وتوزعه فيه. وإذا كان الكاتب على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا أو إذا حصل على جائزة أدبية مهمة أو إذا حصل على جائزة نوبل، فهذا يعني ربحًا عاليًا واعترافًا بأهميته. كانت تلك الأيام مليئة باللقاءات والمواعيد. لم أكن أحرص على مشاهدة المعالم السياحية التي تستغرق الكثير من الوقت. فبدلاً من الزيارات الإلزامية للمعالم السياحية، كنت أذهب في كل مدينة أزورها إلى المكتبات ودور النشر كلما أتيح لي ذلك، وفي البلاد التي لا أستطيع قراءة حروف لغتها، كان الزملاء والمترجمون يصحبونني في جولتي. كنت في عصر الثقافة التناظرية أقف في المكتبات ممسكة بدفتر وقلم وأسجل الأعمال التي ترجمت من

البلاد الناطقة بالألمانية، ثم استعنت منذ بداية الألفية بكاميرا الأي فون التي تساعدني كثيرًا. كنت دائمًا راضية عن عدد الكتب الأدبية المترجمة عن الألمانية والموجودة في مكتبات باريس ومدريد وروما وأمستردام وبراغ وبودابست ولوبليانا وكوبنهاغن. أما الهزيمة الساحقة فلم أشعر بها في إحدى رحلات العمل، وإنما واجهتها فيما بعد في مكتبة «كيلرز» في مينلو بارك بعدما أصبحت جدة. فأنا لم أجد في هذه المكتبة، التي تعتبر واحدة من أكبر المكتبات في أغنى مناطق العالم، إلا ترجمة إنجليزية وحيدة لكاتب ألماني هو «برتولت برشت»، وكان ذلك في الفترة التي تسبق احتفالات أعياد الميلاد حيث تزيد المبيعات عادة. كتاب «برشت» المترجم بعنوان «أشعار الحب» Love Poems، وصدر في عام ٢٠١٤ عن دار نشر «ليفرايت» بترجمة رائعة لـ«توم كون» Tom Kuhn و«دافيد كونستانتاين» David Constantine. كان ذلك يعني أن تواجد أوروبا في وادي السيليكون ضئيل للغاية.

لم ترهقني رحلات العمل أبدًا. فقد كنت أشعر أنني في أثناء هذه الرحلات أفهم مجتمعات البلاد التي أزورها بشكل أفضل من أي رحلة سياحية. كنت أشعر في أثناء رحلات العمل بالأمان وكنت كمن يمتلك بوصلة لفهم المجتمع. أفتقد هذا الشعور الآن في عشرينيات القرن الواحد والعشرين في كل مرة أجلس فيها في ملاعب الأطفال في وادي السيليكون أو في منطقة خليج سان فرانسيسكو. فأنت في رحلات العمل لديك مادة لموضوعات تشعر

داخل إطارها بالأمان، كما تملك بطاقة عمل تعكس خبرتك. هل يجب أن أحصل الآن على بطاقة عمل مكتوب فوقها «جدة»؟ جدة تتنقل بين قارتين. إنه ليس عملاً مميزًا ولا فريدًا من نوعه.

كلكتا

أقرأ في أثناء إحدى الرحلات العابرة للأطلنطي مقالاً في «نيويورك ماجازين» عنوانه «الكوكب يقاوم»، كتبه «دافيد والاس ـ ويلز» David Wallace-Wells . يقول المقال أن مدنًا مثل كلكتا سوف تكون غير قابلة للسكن في خلال الخمسين عامًا القادمة. سيكون ذلك كارثيًا لأنها مدينة لطيفة. كنا نغني ونحن أطفال أغنية «ڤيكو توريياني» Vico Torriani «كالكوتا على نهر الغانج»، وهي أغنية عن امرأة تدعى «مادلين» وعن الأنهار الكثيرة الموجودة خارج أوروبا، نهر الغانج ونهر النيل ونهر الكونغو. زرت مدينة كالكوتا أربع مرات منذ ٢٠٠٨ وحتى ٢٠١٧، وكانت كلها رحلات عمل. أصبحت المدينة تحمل منذ عام ٢٠٠١ الاسم البنغالي «كلكتا». تطابق انطباعي الأول عن المدينة مع مشاعر الشوق إليها والتوقعات الناتجة عن هذه المشاعر. إما أن تهرب أو أن تحب. أنا أحببت. عرفت أن كلكتا لا تقع على نهر الغانج وإنما على نهر هوغلي، وهو نهر يصب في دلتا نهر الغانج من ناحية الغرب. أربكني ذلك. فإذا افترضت طوال خمسين عامًا أن كالكوتا تقع على نهر الغانج، ثم تعرف الآن أنها تقع على نهر هوغلي، فلابد أن تشعر بالإحباط.

هوغلي اسم له وقع سويسري، ويصعب نطقه سواء بالألمانية أو بالإنجليزية. تعرفنا أنا و«أولريش بريت» Ulrich Breth، زميلي في دار «زوركامپ» في أثناء معرض عام ٢٠٠٧ على الناشر «ناڤين كيشور» Naveen Kishore الذي يملك في كلكتا دار نشر «سيغال بوكس» Sagull Books. كان «ناڤين» عازمًا على إصدار سلسلة أدبية تضم عددًا من الأدباء الألمان، وأراد الحصول على حقوق الترجمة من دار «زوركامپ». اعتقدنا أنه يريد حقوق الترجمة إلى اللغتين، الهندية والبنغالية. لكن اتضح أنه أراد الحقوق العالمية لترجمة الأعمال إلى اللغة الإنجليزية. كان ذلك يعني منافسة مباشرة لدور النشر الأخرى في لندن ونيويورك، فلم نهتم في البداية. ثم أعلن «ناڤين» أنه يدعونا إلى كلكتا لنقيّم بأنفسنا الوضع والسوق هناك. طرنا إلى كلكتا عبر دلهي ووصلنا هناك بعد منتصف الليل بقليل. كان «ناڤين» في استقبالنا وأقلنا بسيارته إلى الفندق. أصبحت رحلتي بالسيارة من المطار إلى الفندق إحدى اللحظات المميزة في حياتي. كان ذلك في عام ٢٠٠٨، وفي ذلك الوقت كانت عائلات كثيرة تقيم في الشارع. هذا ما تغير بشكل واضح في العشر سنوات الأخيرة. أتصور أن الناس في كلكتا ينتقلون من الشارع إلى البيوت في حين ينتقل الناس في سان فرانسيسكو من البيوت إلى الشارع. صخب العاصمة البنغالية ذات الحافلات المكتظة، والضجيج في الشوارع، والمطابخ المفتوحة، وآلاف الروائح، كل ذلك يتناقض مع الهدوء الكثيف الذي تجده في أماكن أخرى بالمدينة مثل بيت الشاعر والرسام والموسيقار البنغالي الكبير «رابيندرانات طاغور»

الذي كان أول أسيوي يحصل على جائزة نوبل، ومثل حديقة النباتات التي تمتد على طول نهر هوغلي، ومثل الحديقة حول نصب فيكتوريا التذكاري. ففي هذه الأماكن يمر الوقت ببطء أكبر وبشكل يجعلك تستسلم وسط دفء شهر يناير للعبة الضوء والظلال. كان الغرض من زيارتنا الأولى لمدينة كلكتا هو التعرف على السوق والتخطيط لإصدار سلسلة كتب مترجمة عن اللغة الألمانية، وهو ما حدث بالفعل بشكل سريع نسبيًا من خلال التعاون بين دار نشر «سيغال بوكس» ومعهد غوته ودار نشر «زوركامپ»، ثم انضمت دور نشر ألمانية أخرى فيما بعد إلى هذا المشروع. سوق الكتاب في الهند سوق متفرد على مستوى العالم، فهذا السوق تهيمن عليه التكتلات الإعلامية البريطانية والأمريكية إلى جانب العديد من دور النشر الصغيرة المستقلة التي تنشر بمائة وعشرين ١٢٠ لغة مختلفة على الأقل. ومع ذلك، فلا يوجد في هذا السوق إلا قلة من المترجمين والمترجمات القادرين على الترجمة من الألمانية إلى لغات مثل الهندي والبنغالي والتاميل والمالايالامية وهي لغات يقرأ بها ملايين القراء. تعتبر رواية «هرمان هسه» «سيدهارتا» أحد الأعمال الألمانية الأدبية القليلة التي ترجمت إلى أكثر من عشر لغات هندية. لا توجد في كلكتا مكتبات لبيع الكتب على الطراز الأوروبي إلا نادرًا، فالكتب تباع في الأساس في أكشاك حول الجامعة في شارع «كوليج ستريت». أشتري كتابًا على غلافه صورة «توماس مان». أفهم من الجملة الخاصة بحق الملكية الفكرية أن الكتاب ترجمة بنغالية لقصة «تونيو كروغر» Tonio

Kröger وقصص أخرى كتبها «توماس مان» في وقت مبكر من حياته. تصطف السيارات المحملة بالكتب أمام مباني الجامعة مثلما تصطف أكشاك بيع الكتب في باريس أمام نهر السين. يرافقني المترجم «سوبروتو ساها» Subroto Saha إلى مقهى الكوفي هاوس الهندي الشهير، ويطلق عليه أيضًا اسم «مقهى الفلاسفة». استضاف هذا المقهى عددًا كبيرًا من الأدباء والفلاسفة يماثل على الأقل العدد الذي استقبلته مقاه باريسية مثل مقهى «دو فلور» de Flore ومقهى «ليه دو ماغنو» Les Deux Magnots ux دو د الذي استضافه مقهى من الرلى الطراز الرين على الترجمة من الياعشر ولهذا فلم نهتم ب. الأسلوب البريطاني هو المهيمن على العمارة وتنسيق الحدائق والنوادي الرياضية كما هو متوقع، ولكني اندهشت من وجود روابط متنوعة بين كلكتا وبين العاصمة الفرنسية.

يدعوني صديق يعمل بالمعهد الهندي للإدارة في كلكتا إلى العشاء في نادي بنغال الراقي. كانت العضوية في هذا النادي في السابق مقتصرة على الرجال، وكان يُسمح للنساء بالحضور إلى النادي فقط إذا كن في صحبة الرجال. أنشئ نادي بنغال في عام ١٩٢٧، وسمح منذ عام ١٩٥٧ للمواطنين الهنود أيضًا بالانضمام لعضوية النادي. نجلس في الصالون ونتحدث عن التعايش بين الأجيال. يسافر «فارون» Varun بشكل منتظم من كلكتا إلى حيدرأباد حيث تقيم والدته، وقد ابتكر مع إخوته نظامًا يتبادلون فيه رعايتها. ومن حيدرآباد يسافر «فارون» إلى دلهي حيث تنتظره زوجته، وهي من كلكتا أيضًا. يتبادل الاثنان رعاية الأحفاد عندما يذهب أبناؤهما

إلى العمل. أنا أيضًا أحيا حياتي وأنا أتنقل بين الأجيال، مثلي مثل العديد من الأصدقاء المماثلين لي في العمر من كل أنحاء العالم. يقع منزل أجدادي الأوائل في ڤيزلوخ شمال ولاية بادن، وكان يعيش فيه أكثر من جيل. أما الآن فالبيت الذي يربط بين الأجيال يقع بين برلين وسان فرانسيسكو، ويطير بينهما مثل *سحابة* نشعر داخلها بالحب.

بعد أربع سنوات من بداية تعامل دار نشر «زوركامپ» مع دار «سيغال بوكس»، قام الناشر «نافين كيشور» في ٢ أبريل ٢٠١٢ بتأسيس مدرسة «سيغال للنشر» **Seagull School of Publishing**، التي يتلقى فيها خمسون طالبًا وطالبة تدريبًا إضافيًا لمدة ثلاثة شهور في كل عام يتدربون فيها على تحرير وإنتاج الكتب وتوزيعها. يحاضر في المدرسة متخصصون في مجال النشر. سافرت إلى هناك في بداية يوليو لألقي أولى محاضراتي، كان ذلك موعدًا غير مناسب من حيث الطقس. وعندما جلست في بار «هاينكن» في مطار أبو ظبي حيث كان علي أن أغير الطائرة، فكرت: لماذا أفعل ذلك بنفسي، فبالتأكيد يوجد في الهند شخص ما قادر على الشرح للطلبة كيفية التفاوض على إبرام العقود وبيع الحقوق. لكن كان الأوان قد فات لطرح مثل هذا السؤال، فقد كنت أجلس مع عمال ومهاجرين أجانب وبعض السياح أنتظر مواصلة الرحلة إلى كلكتا، كنت أجلس في حانة أتناول كوبًا كبيرًا من البيرة في بلد لا يشرب سكانها الكحوليات. هبطت الطائرة في كلكتا وأوصلني السائق في وقت متأخر من المساء إلى مكان إقامتي في «نادي توليغونغ للغولف»

Tollygunge Golfclub . صمم الإنجليز هذا النادي وأنشؤوه كمكان لممارسة رياضة الفروسية، ويقع في وسط حديقة كبيرة وهادئة في جنوب كلكتا. سعدت بالطراوة النسبية في المكان. صحوت في الساعة الرابعة فجرًا على صيحات صادرة من وسط الحشيش الأخضر. إنها بطولة رياضة الغولف وقد بدأت في هذا الوقت المبكر لأنه لم يكن من الممكن ممارسة الرياضة بعد الساعة الثامنة صباحًا. أخذت أتابع البطولة باهتمام بالرغم من عدم معرفتي برياضة الغولف. لكن اللون الأخضر الجاف وتلك الساعة من الليل والرجال في ملابسهم البيضاء والشمس المشرقة وابن آوى الذي يتسلل ببطء عند حافة الحديقة والأصوات الأولى القادمة من مطبخ الفندق، كل ذلك جعلني أبتهج وأتفهم أن رحلتي للمدرسة كانت ذات معنى وأنني يمكن أن أكون مفيدة. تأكد لدي هذا الانطباع بعد خمس ساعات داخل قاعة المحاضرات: كان معظم الحاضرين من النساء اللاتي يحلمن بتأسيس دور نشر خاصة. قدمت كل ما في وسعي لأغذي هذا الشعور. فقلت للحاضرين: «إنكم تملكون الظروف المثالية لصناعة النشر. فأنتم تتكلمون لغتين على أي حال، الإنجليزية ولغة هندية أخرى على الأقل. إنه سوق ضخم للمحتوى المطبوع والرقمي ومنتجاته!» بدأنا نحلم سويًا بالناشرات الشابات وقد بدأن التفاوض حول شراء حقوق الكتب في سوق النشر العالمي، ونحلم بهن وهن يحولن موضوعاتهن إلى كتب مطبوعة وإلكترونية ثم يبعن الحقوق لشركات إنتاج الأفلام ومنصات البث المباشر. بدا لي في هذين اليومين أنه لا شيء مستحيل وتبخرت

شكوكي. كان الرابع عشر من يوليو آخر مساء لي في كلكتا، وكان ذلك التاريخ يوافق عيد الباستيل الفرنسي. عرفت أن هذا اليوم هام أيضًا في مجتمع كلكتا. دعاني «ناڤين» لأصحبه إلى القنصلية الفرنسية، فقبلت دعوته شاكرة. لم أكن أعرف هناك أحدًا باستثناء المضيف. تذكرت حفلات الاستقبال التي تقام بمناسبة عيد الباستيل في السفارة الفرنسية في برلين وفي القنصلية الفرنسية في فرانكفورت على الماين. كنت أملك فيما يتعلق بالعلاقات الثنائية الألمانية/ الفرنسية في كلتا المدينتين ميزة أنني كنت في ملعبي. هذا ما اجتهدت من أجله. كنت أغني في برلين مع الضيوف الآخرين النشيد الوطني الفرنسي «لا مارسييز» Marseillaise والأناشيد الوطنية الألمانية والأوروبية، وكنت أغني وكلي ثقة بنفسي. أما في كلكتا فلم أكن أعرف سطرًا واحدًا من النشيد الوطني الهندي. أُلقيت كلمات كثيرة وعُزفت موسيقى بنغالية، واستغرق الأمر وقتًا طويلاً جدًا حتى افتتح البوفيه المليء بالأطباق الشهية. كنت قد اتخذت في بداية الأمسية موقعًا استراتيجيًا مناسبًا قريبًا من البوفيه الذي يضم الكثير من الأطباق البنغالية. كانت القاعة التي وقفنا فيها ممتلئة عن آخرها بالناس وكبيرة للغاية، فلم ألحظ أن ثمة بوفيهين آخرين ممتلئين عن آخرهما بأنواع كثيرة من الجبن الفرنسي. خشيت أني لن أستطيع أن أملأ طبقي بما يكفي من الطعام، ولكن لم يكن قلقي مبررًا، فجميع البنغاليين الحاضرين انقضوا على جبن الكاميمبير وجبن الماعز والغروير والأصناف العشرين الأخرى من الجبن والتي استقدمت خصيصًا من باريس بالطائرة، وكان ذلك مكلفًا للغاية..

حفل صاخب للجبن في الرابع عشر من يوليو. إنه عيد للتذوق، لأن معظم محال السوبرماركت في كلكتا لا تبيع الجبن الفرنسي، فنقل البضائع القابلة للتلف بسرعة يكلف الكثير، كما أن تخزينها بشكل مناسب معقد جدًا. الضيوف الذين انتهى بي المطاف على نفس مائدتهم أخذوا ينظرون في شفقة إلى العدس والدجاج فوق طبقي. لم يفهموا كيف أني لم أتناول أي شيء من الجبن وسألوني في تعاطف إذا كنت أعاني من أي حساسية تجاه منتجات الألبان. كان ذلك اليوم هو عيد الباستيل الوحيد الذي حضرته في الهند بسبب ظروف الطقس. وفي أثناء رحلة العودة إلى أوروبا، وقد طرنا هذه المرة عبر دلهي، أخذت أنظر من النافذة لمدة أربعين دقيقة تقريبًا بعد الإقلاع. لم أصدق عيني: فقمم الجبال المغطاة بالثلوج كانت تبرز من بين السحاب. وكان علي أن أنظر إلى أعلى لأرى سلاسل الجبال وليس إلى أسفل كما يحدث عندما نحلق فوق جبال الألب. جلست مثل المشلولة وسألت جاري هامسة: «هل هذا هو جبل الهيمالايا؟» رفع عينه مرتبكًا للحظة قصيرة عن اللابتوب وأجاب: «طبعًا Of course.» ألصقت وجهي بزجاج النافذة لمدة نصف ساعة أخرى. لم أر في حياتي شيئًا بهذه الروعة من قبل.

آخر محاضراتي في مدرسة «سيغال» للنشر كانت في مارس ٢٠١٧. لم أتشكك هذه المرة في جدوى الرحلة الطويلة إلى هناك. فقد رأيت بعين عقلي أجيالاً عديدة من الناشرين والناشرات الذين كرسوا حياتهم لنشر المحتوى العلمي والأدبي. وفي يوم عيد ميلاد حفيدتي تجولت في الحديقة النباتية الممتدة على ضفة نهر هوغلي

في صحبة «سوبرتو ساها». صور لي فيديو أهنيء فيه الطفلة بعيد ميلادها. كلكتا بعيدة جدًا بالتأكيد عن كاليفورنيا. فالرحلة التي يقطعها العدد الكبير من الأجداد الهنود المسافرين معي من فرانكفورت إلى سان فرانسيسكو، تستغرق أربعًا وعشرين ساعة، سألت بعضهم لماذا لا يسافرون من دلهي مباشرة إلى سان فرانسيسكو عبر المحيط الهادئ، فأجابوا أنه لا توجد رحلات مباشرة وشرحوا لي كيف أن تغيير الطائرة مرتين أمر مزعج أو أنهم قد يستغرقون وقتًا أطول إذا سافروا عبر ملبورن أو ويلينغتون. لا، إنهم يفضلون في هذه الحالة الطيران عبر أوروبا. تحدثت في الفيديو وكأني في مكان قريب للغاية ـ «قريب من القلب»، هذه هي شفرة الحب عن بعد.



سلوفينيا

سلوفينيا هي ضيف الشرف في معرض فرانكفورت للكتاب في عام ٢٠٢٣. ستقوم دور النشر الألمانية بترجمة أعمال كاتب أو اثنين من الكتاب السلوفينيين الجدد، وستقدمها للمكتبات ووسائل الإعلام والقراء. بدأت الوكالة الأدبية السلوفينية برئاسة «ريناتا زاميدا» Renata Zami في السنوات الماضية بالاستعداد لمشاركة سلوفينيا كضيف شرف في المعرض، فقامت الوكالة بدعوة مجموعة صغيرة من المحررين والصحفيين الألمان إلى سلوفينيا. أسعدني الحظ في عام ٢٠١٧ أن أشارك في إحدى هذه الرحلات لأن كتابي المتخصص عن الحقوق وبيعها كان سيترجم إلى السلوفينية وكان على أن أتعاون مع المترجمة بخصوص ترجمته. تنظر أسواق الكتب الأقل حجمًا إلى ألمانيا بوصفها «سوقًا وسيطة» كما يطلق عليها. وهذا يعني أن ترجمة الكاتب السلوفيني إلى الألمانية تزيد كثيرًا من فرص ترجمته إلى لغات أخرى. ليوبليانا، عاصمة سلوفينيا، هي المكان المثالي لعشاق الكتب: فعدد مكتبات بيع الكتب ومكتبات بيع الكتب الأثرية والقديمة أكبر من عدد السكان، كما يوجد برامج مكثفة لترويج الكتاب وتشجيع القراءة. يعكس هذا البلد بحدوده

المتاخمة للنمسا والمجر وكرواتيا وإيطاليا، جمال وتنوع أوروبا كأنه وحده عالم مصغر، لكنه يضم أيضًا تاريخًا عن أهوال الحرب العالمية الثانية وتقسيم البلد ما بين ألمانيا وإيطاليا والمجر والمذابح والتهجير وعصر يوغوسلافيا الاشتراكية الموحدة تحت حكم الرئيس «تيتو» ثم الانفصال عن اتحاد الدول اليوغوسلافية عندما أعلن البلد استقلاله في ٢٥ يونيو ١٩٩١ : إنه التاريخ المعاصر الذي خلّف داخل كل عائلة سلوفينية آثارًا واضحة، خلف جراحًا وانفصالاً واختلافات سياسية. كانت الأحداث التاريخية حاضرة بقوة في الأحاديث التي دارت بيننا وبين الأدباء والمتخصصين رغم مرور فترة زمنية كافية تجعلك تعتقد أن مثل هذه الأحاديث قد انتهت. تجد الذكريات انعكاسًا لها في الروايات وفي القصائد والمسرحيات التي يكتبها السلوفينيون، وهم، مثلهم مثل كل أدباء العالم، يلتقطون إلى جانب التاريخ موضوعات إنسانية عامة وأنطولوجية وميتافيزيقية ويشكلونها. لن نفهم شيئًا عن تاريخ البلد ولا عن الناس الذين يعيشون فيه بدون قراءة أدبه. تتيح قارة أوروبا بلغاتها الكثيرة إنتاجًا متميزًا متاحًا للترجمة. المناظر الطبيعية في سلوفينيا متنوعة، ويكتمل هذا التنوع بتنوع آخر في المطبخ السلوفيني بمكوناته السلوفينية والإيطالية والنمساوية والكرواتية والمجرية. كانت هذه الرحلة مليئة بالأحداث الهامة، أحدها كان عشاء مع الفيلسوف «سلافوي جيجك»[1] Slavoj Žižek في فندق «فيلا بليد» في المنتجع

(١) «سلافوي جيجك» فيلسوف وناقد ثقافي من سلوفينيا، ولد عام ١٩٤٩. له=

الذي يحمل نفس الاسم ويقع على بحيرة بنفس الاسم أيضًا. كان لي الشرف أن أجلس إلى جانب هذا الكاتب. لم أكن أملك معرفة كافية بنظرياته، ولأني أحمل احترامًا كبيرًا لذكائه فقد استطعت أن أحول مجرى الحديث إلى موضوعات شخصية مثل الزواج والأطفال. كان كلانا مقتنعًا بالزواج كشكل من أشكال التعايش، وكنا متفقين أنه من الأفضل أن يقوم الشخص الذي يرغب في الزواج بالإفصاح عن رغبته بسرعة قبل أن يغير الشخص الذي يريد الزواج منه رأيه. ورأينا أنه من المنطقي أن يؤدي ذلك النهج أحيانًا إلى أن يتزوج المرء أكثر من مرة. وبعد عام واحد من تلك الزيارة الأولى في سلوفينيا، عدت من جديد في يونيو ٢٠١٨ إلى فندق «فيلا بليد» لحضور ورشة نظمها اتحاد الناشرين السلوفينيين. كان ماء البحيرة ما زال باردًا، ففضلت الجلوس في الشرفة بدلاً من السباحة في البحيرة. جاءت إلي مديرة الفندق وقالت: «احزري من كان هنا في الفندق في الأسبوع الماضي؟» خمنت أنه قد يكون الأمير تشارلز أو من هم في مركزه على أقل تقدير، فثمة صور عديدة معلقة في قاعة الاستقبال الرائعة تضم رؤساء دول أو رؤوسًا تحمل تيجانًا. «لا، ليس الأمير تشارلز، إنه البروفسور «زاور»، إنه

=مساهمات عديدة في النظريات السياسية والتحليل النفسي والسينما، له كتب مترجمة إلى العربية مثل «سنة الأحلام الخطيرة» الصادر عن دار التنوير وكتاب «بداية كمأساة وأخرى كمهزلة» الصادر عن دار طوى للثقافة ولانشر والإعلام. (المترجمة)

من برلين أيضًا.» وسألت: «زوج المستشارة؟» فأجابت بالإيجاب وأضافت في أسف أنها لم تكن تعرف ذلك، فقد كان شديد التواضع وبدون حراسة شخصية، ولم تنتبه لشخصيته إلا عند مغادرته للفندق بعدما نبهها بعض النزلاء الألمان. شعرت المديرة بخيبة أمل لأني لم أكن أعرف هذا النزيل المميز شديد اللطف معرفة شخصية بالرغم من أني أقيم في برلين أيضًا. يبدو أنها رأت أن من وجّه لي الدعوة من العاملين في مجال الكتب قد أعطاني أهمية أكثر مما أستحق.

بكين، شنغهاي

هبطت بي الطائرة في بكين في صيف عام ٢٠٠٤، وكانت تلك المرة الثانية التي أزور فيها بكين. المرة الأولى كانت في عام ١٩٨١ عندما سُمح لي بمصاحبة وفد يمثل صناعة الفراء التي كان والدي يعمل بها. قررت في ذلك الوقت أن أقارن انطباعاتي الشخصية عن البلد بانطباعات سيمون بوفوار التي كتبتها في عام ١٩٥٧، وكان ذلك غرورًا مني، فأنا لم أكتب سطرًا واحدًا بعد عودتي إلى فرانكفورت على الماين. كما لم يتوقع أحد أن أكتب أي شيء، بالإضافة إلى ذلك، فلم أفهم شيئًا عن الصين في ذلك الوقت على عكس سيمون بوفوار. لم أفعل هناك سوى زيارة المدينة المحرمة وسور الصين العظيم ومشاهدة وسط المدينة الأوروبي في شنغهاي. ثم زرت في نهاية الرحلة هونجغ كونغ، حيث استسلم أعضاء الوفد لنشوة الاستهلاك بعدما امتنعوا عنه في جمهورية الصين الشعبية لمدة عشرة أيام. في خلال الأيام الثلاثة التي قضيناها في هونغ كونغ، أخذنا نحصي عدد السيارات الرولز رويس في المدينة الكبيرة. أظهر عدد السيارات الكبير طابع المدينة الخاضع للاستعمار بشكل أكثر وضوحًا.

وجدت في عام ٢٠٠٤ بلدًا مختلفًا تمامًا. فقد بدت شنغهاي مثل مانهاتن، وبدت بكين، بطرقها السريعة ذات الحارات الستة، مثل لوس أنجلوس. وهيمنت على وسط المدينة نفس سلاسل المحلات الشهيرة والمتاجر الراقية الموجودة في العواصم الأوربية، وفي المساء كانت تقام احتفالات مفعمة بالحيوية تصدح فيها الموسيقى الحية. كانت الحكومة الصينية قد وقعت في عام ١٩٩٥ اتفاقية حماية الملكية الفكرية، وأصبحت الأبواب الآن مفتوحة للتفاوض حول عقود بيع حقوق الكتب. جئت إلى معرض الكتاب في الصين في مهمة رسمية لأمثل مؤلفي دار نشر «زوركامپ»، وكان لدي العديد من المواعيد لمناقشة بيع حقوق كتبهم. بالإضافة إلى ذلك فقد دعاني «شاو ڤايدونج» Cao Weidong، زميلي ومترجم أعمال هابرماس Habermas إلى إلقاء محاضرة في جامعة «بكين التقليدية» Bejing Normal University عن صناعة النشر في ألمانيا، وفي النهاية، وبعد انتهاء المعرض زرت عددًا من دور النشر في شنغهاي. واصلت رحلاتي إلى الصين كل عامين حتى عام ٢٠١٠، أي حتى استقر بيع وشراء الحقوق بين دور النشر الألمانية والصينية وتوطدت العلاقات التجارية بين دور النشر في البلدين، وأصبح الناشرون والمحررون الصينيون يأتون بانتظام إلى معرض الكتاب في فرانكفورت. لكني ما زلت حتى اليوم أجد صعوبة في فهم سوق الكتاب الصيني بسبب الثنائية القطبية الموجودة فيه والمتمثلة في وجود قطاع خاص وقطاع حكومي في الوقت نفسه. فهناك يمارس الموظفين الحكوميين في مجال الثقافة الرقابة، ولكن من ناحية أخرى، فاهتمام الناشرين الصينيين بالفلسفة الأوروبية والأدب

الأوروبي كبير، ويدور كل ذلك في إطار من حسن ضيافة غير عادية، مما يجعل الزائر يتخذ موقفًا دفاعيًا عن الصين إلى حد ما. كنتُ أجد دائمًا صعوبة في التعليق على النظام السياسي لهذا البلد الذي استضافني، كما أني كنت طرفًا في عملية التفاوض حول بيع حقوق كتب الفلسفة والأدب الألمانية. ينشر الناشرون في الصين أعمالاً لفلاسفة من أوروبا وأمريكا ذات طابع تنويري.. تتوفر هنا مثلًا الأعمال الكاملة للنظرية النقدية في طبعات كثيرة وتمثل أعمال «يورغن هابرماس» Jürgen Haberms، و«أكسيل هونيت» Axel Honneth و«راينر فورست» Rainer Forst جزءًا ثابتًا من مناهج كليات الآداب والفلسفة في الصين، إنه تناقض شعرت به دائمًا طوال عملي في مجال بيع الحقوق، وكان هذا التناقض يمثل لي تحديًا ويثير دهشتي في نفس الوقت. تعتبر معاهد وكليات الأدب الألماني والفلسفة في الجامعات الصينية مجمعًا للكفاءات. ففيها يشكل الأساتذة المتخصصون فريقًا للترجمة عن اللغات الأخرى. ومستوى التمكّن من اللغات لدى هؤلاء المترجمين ممتاز، مثله مثل مستوى الترجمة في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وفي السوربون وفي أكسفورد وكامبريدج. ومع ذلك، وبعيدًا عن دور النشر والجامعات، يظل فهم السياق الاجتماعي والسياسي في الصين تحديًا للزائر الذي يتعامل في مجال البيع والشراء.

إذا تُرجم نص من اللغة الألمانية إلى لغة الماندارين، فإن طوله يختصر بنحو الثلث تقريبا. ولهذا تميل دور النشر الصينية إلى إصدار طبعات الأعمال الكاملة. يحدث هذا الاختصار لأسباب تقنية،

ولكن تعوض دور النشر ذلك بالعناية الكبيرة التي توليها لكل طبعة على حدة. ففي الفترة التي قضيتها في العمل في مجال بيع حقوق الكتب في الصين، صدرت هناك أعمال «توماس برنهارد» Thomas Bernhard الكاملة و«بول تسيلان» Paul Celan و«بيتر هاندكه» Peter Handke و«فولكر براون» Volker Braun و«هرمان هسه» Hermann Hesse و«يورغن هابرماس» Jürgen Habermas. وكان يحتفل بكل إصدار إحتفالاً لائقًا وتقام حفلات عشاء تمثل أعيادًا للحواس، فيوضع في منتصف المائدة طبق دوّار ضخم عليه العديد من المأكولات الشهية المختلفة. يدور الطبق ثماني دورات، وكل دورة بها عشرة صحون. كنتُ ضيفة الناشر على العشاء، فكان يملأ طبقي بالمأكولات مستخدمًا العصي الخاصة به، مأكولات لم أكن أعرفها في بداية الألفية. تغيرت بعد ذلك أصناف المأكولات والمشروبات المقدمة، فبدأ تقديم أصناف متنوعة من الأطباق والمشروبات الشائعة الآن بدلاً من المأكولات والمشروبات الصينية التقليدية. حدث ذلك بعدما قفز سرطان البحر الحي في وجهي في أثناء الاحتفال بإصدار أعمال «توماس برنهارد» الكاملة. ولهذا، وعندما أقيم احتفال بإصدار أعمال «باول تسيلان» قرر المضيفون الصينيون التخلي عن كل ما يمكن أن يزعج الضيف الأوروبي. تغيرت المشروبات أيضًا، ففي أثناء الاحتفال بإصدار أعمال «يورغن هابرماس» كانت المشروبات الروحية الصينية هي تقدم بكميات كبيرة، ولكن بعد بضعة سنوات، وعندما صدرت أعمال «فولكر براون»، قُدم لي في الاحتفال نبيذ أحمر ممتاز من ماركة «السور

العظيم» Great Wall. حتى التصميم الداخلي في الفندق أصابه التحول أيضًا: فتغير من أسلوب ذي سمة صينية تقليدية إلى أسلوب عالمي يمكن أن يستبدل بأسلوب آخر بسهولة. اكتشف الجيل الجديد في المدينة الكبيرة تصميم الملابس وصناعة الموضة، وأنشأوا لأنفسهم علامات تجارية ناجحة خاصة بهم مثل «لي - نينغ» Li-Ning، وأصبح لهم زبائن مخلصون، وسرعان ما وجدوا صلة تربطهم بوادي السيليكون. لا أعرف أي مجتمع آخر استطاع أن ينجز هذا التحول مثلما فعل المجتمع الصيني في أول عقدين من القرن الجديد. وعادة، وبعد ما ننتهي من العشاء الرسمي، كنا نرقص على أنغام الموسيقى الحية على شرفات أسطح الفنادق.

بيروت، القاهرة، الإمارات العربية المتحدة

بدأ التعاون مع البلاد العربية في أواخر تسعينيات القرن العشرين. وافق مجلس النواب في كل البلاد العربية، باستثناء ليبيا، على الانضمام إلى اتفاقية حماية الملكية الفكرية. ذهبت إلى معرض الكتاب في بيروت بدعوة من معرض فرانكفورت للكتاب. وصلت إلى عاصمة لبنان في ٢٦ مارس ١٩٩٨. كانت الحرب الأهلية التي استمرت خمسة عشر عامًا قد انتهت منذ ثمانية أعوام، ولم أكن أتصور أنني سأرى هذا العدد الكبير من المباني المدمرة. فزعت عندما وجدت أن المدينة مازالت في مرحلة إعادة البناء. شعرت بالخوف وأنا داخل السيارة التي أقلتني من المطار إلى قلب المدينة، فقد خشيت أن تنطلق الرصاصات من وسط أي من تلك الأنقاض. في الفندق الفاخر المطل على الشاطئ والذي يطلقون عليه الكورنيش، وقفت داخل المصعد إلى جانب امرأة ترتدي النقاب، فشعرت ببعض الحرج. لم نتمكن من تبادل أية أحاديث، لكني وجدت أيضًا صعوبة في التواصل مع اللبنانيات العلمانيات اللاتي كان مظهرهن يشبه المغنية الفرنسية «فرانسواز هاردي» Françoise Hardy وكن يدخن ويطفئن سجائرهن في أوراق الخس بلامبالاة أو

بأناقة. بدا لي من النظرة الأولى أن بالمدينة ثمة اختلافات اجتماعية لا يمكن تجاوزها. في أول مساء لي في بيروت، دعيت أنا وضيوف ألمان آخرين إلى العشاء لدى القطب الإعلامي والكاتب والدبلوماسي «غسان تويني» تعرفت هناك على المحامي والناشط الحقوقي «شبلي ملاط» وأصبحنا منذ ذلك الحين أصدقاء. جلس إلى نفس مائدتي أستاذان جامعيان يدرسان الفلسفة من مدينة زحلة المسيحية في وادي البقاع. كانا يعرفان قائمة الإصدارات العلمية التي تنشرها دار «زوركامپ» أفضل مني. شعرت بالخجل من نفسي، لكن ليس لوقت طويل لأن الأمسية كانت مليئة بالأحاديث الثقافية ومبهجة وأكثر من رائعة من جميع النواحي. أوصانا مضيفونا بتناول النبيذ الأحمر اللبناني. تطلعت في صباح اليوم التالي من شرفة سطح الفندق إلى قمم الجبال المغطاة بالثلوج وأشجار الأرز، ورأيت على الناحية الأخرى البحر المتوسط، وتساءلت إذا كنت قد رأيت مشهدًا بمثل هذا الجمال من قبل. تلاشى في تلك اللحظة قلقي من أن أكون قد أتيت إلى لبنان في وقت غير مناسب. لكن عاد إلي هذا القلق من جديد عندما دخلت القاعة في معرض الكتاب حيث سألقي محاضرة عن حقوق الكتب وعقود بيعها. فهناك جلس خمسة عشر ناشرًا من لبنان ومن مصر، واتضح لي من النظرة الأولى أنهم أتوا فقط لإظهار الاحترام اللازم لمعرض فرانكفورت الذي أقام جناحًا جماعيًا بغرض فتح حوار مع لبنان بعد الحرب وتنشيط التبادل التجاري في مجال النشر مع ألمانيا.

استمع لي الناشرون بكل أدب، ولكن كان لدي انطباع أنهم كانوا يفضلون لو كنت رجلاً، وفي تلك اللحظة كان ذلك ما تمنيته أنا أيضًا. دار النقاش في المقام الأول حول إجراءات حماية حقوق الملكية الفكرية، وأخبروني عن نسخ كتبهم المسروقة التي توزع في الدول العربية الأخرى. يضم سوق الكتاب العربي بلدانًا كثيرة تجمعهم لغة واحدة، على عكس سوق الكتاب الأوروبي بلغاته المتعددة. قد نتصور أن المنطقة العربية تزخر بالكثير من الفرص لنشر ترجمات العديد من الكتب، لكن المنطقة العربية، مثلها مثل أماكن أخرى في العالم، تعاني من نقص في المترجمين والمترجمات المؤهلين للترجمة عن اللغة الألمانية. ومع ذلك، فقد استطعنا في أثناء النقاش الذي أعقب المحاضرة، وبالرغم من الارتباك الذي سببه الاختلاف بين الجنسين، أن نتوصل إلى عدد من النقاط يمكن أن نتعاون بشأنها في السنوات القادمة. إلا أن الهجوم على مبنى التجارة العالمي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أدى إلى قطع العلاقات التجارية بين دور النشر العربية والأوروبية. لم تتوقف تلك العلاقات تمامًا، ولكنها كادت أن تتوقف، ولم يرتفع عدد الترجمات عن الألمانية من جديد إلا منذ عام ٢٠٠٥ وبعد عام ٢٠٠٧، عندما دعيت الدول العربية كضيف شرف إلى معرض فرانكفورت للكتاب. ثم توالت بعد ذلك دعوات الناشرين والمؤلفين والمترجمين إلى الإمارات العربية المتحدة لحضور لقاءات مشتركة في دبي وفي معرض الكتاب في أبو ظبي، وبدأ تقليد جديد لتخصيص جوائز كبيرة للترجمات إلى العربية. زرت العديد من

المعارض والمؤتمرات لأني كنت مهتمة بالتعاون مع الدول العربية. قد يحتاج الناس إلى عقود حتى يفهموا بعضهم بعضًا بالشكل الصحيح. إن كرم الضيافة في الشرق الأوسط غير عادي، ولم أعرف أبدًا كيف يمكن أن أرد هذا الكرم الذي قوبلت به في الدول العربية، فأنا أمثل دار نشر ألمانية غير حكومية متوسطة الحجم. يعتبر الشاعر والمترجم «مصطفى السليمان»، وهو أيضًا مسؤول بالقسم الثقافي في سفارة الإمارات العربية المتحدة في برلين، أحد الميسرين الثقافيين الذين ظلوا يدعون كثيرًا إلى التبادل الثقافي بين أوروبا وبين الدول العربية طيلة خمسة وعشرين عامًا. سوف ينجح الأمر في وقت ما. أعتقد أنه لابد من المزيد من برامج التبادل الثقافي، برامج تديرها الدولة ويديرها القطاع الخاص: برامج للشباب وللأكبر سنًا.

إذا زرت القاهرة، فلابد أن تشاهد معالمها السياحية: النيل وأهرامات الجيزة. هذا ما أردته، أن أزور معالم المدينة والأهرامات، فخططت ليومين إجازة بعد الورشة التي أدرتها في معهد غوته. كان ركوب الجمل في الصحراء من بين خططي. أوصلني السائق إلى سائس الجمال وبينما كان الرجلان يتفقان على المكان الذي ستعود إليه السيارة لتقلني مرة أخرى، ركع الجمل على الرمل وبدأ يأكل. اعتقدت أنه جمل مسن إلى حد كبير، فلم يكن متحمسًا للنهوض من أجل جولة واحدة. لم يسمح لي الجمل باتخاذ مجلسي فوقه إلا عندما قال مالكه: «هيا يا بطل، إنه وقت

العمل.» Hey, Champion, it’s business time، فنهض من مكانه. أنا كنت وقت العمل بالنسبة للجمل، هذا شيء لا يحدث لك كل يوم. قاد مالك الجمل جمله وسط الرمال، وفهمت لماذا ينجذب كثير من الناس إلى المناظر الطبيعية في الصحراء. فكرت وأنا أتأرجح فوق الجمل: «إن هذا يشبه التواجد على شاطئ المحيط الهادئ.» وصلنا بعد ثلاث ساعات إلى الطريق الذي كان السائق ينتظرني فيه. تبادل الرجلان بعض المعلومات ثم قفز السائس فوق الجمل الذي تحول تحولاً سريعًا من حيوان متقدم في السن إلى حيوان شاب وسريع للغاية. أخذت أراقبهما لوقت طويل وهما يبتعدان.

الحب عن بعد

II

بيركلي

طرت في نوفمبر ٢٠١٩ عبر جرينلاند لأهبط في سان فرانسيسكو في الوقت المناسب تمامًا للاحتفال بعيد الشكر، استخدمت تذكرة كبار السن التي حصلت عليها من فرع مترو النقل السريع في المطار. كنت قد تقاعدت منذ أسبوع واحد فقط. أنهيت أربعين عامًا من حياتي المهنية. أقامت لي دار «زوركامپ» حفل وداع لطيف. لم يكن حفلاً مثل ذلك الذي صور في فيلم «عن شميدت» About Schmidt الذي أخرجه «ألكسندر باين» Alexander Payne وقام «جاك نيكلسون» Jack Nicholson بالدور الرئيسي فيه. الفيلم مأخوذ عن روايات «شميدت» التي كتبها «لويس بيغلي» Louis Begley . يحكي الفيلم عن أحد كبار الموظفين في شركة تأمين الذي يحال إلى التقاعد، فيودعه زملاؤه بلا مشاعر حقيقية ولكنهم يخفون ذلك تحت ستار من المديح. وعندما يقرر «شميت» بعد مرور ثلاثة أسابيع على تقاعده، زيارة خليفته في المنصب، يقوم الأخير بدفعه إلى خارج الشركة بأدب جم وعبارات مهذبة. يا لحسن حظي، هذا ما فكرت فيه في أثناء رحلة الطيران.

دعينا في ديسمبر إلى حفل ميلاد أحد الأطفال في سان

فرانسيسكو. أخذت أفكر، ونحن نعبر جسر الخليج في اتجاه وسط المدينة، في السنوات المنصرمة. كنت في المرتين التي ولد فيها أحفادي في المسرح. يساعدني فارق التوقيت الذي يبلغ تسع ساعات على حضور عملية الولادة وأنا في المسرح. كنت في عام ٢٠١٤ مع صديقتي «آنا ڤيبر» Anna Weber في مسرح «ايبرتو» Hébertot في باريس نشاهد مسرحية «أوجين يونسكو» Eugène Ionesco «الملك يرحل»، وكان «ميشيل بوكيه» Michel Bouquet يقوم فيها بدور الملك. المسرحية من إخراج «جورج ڤيرلر» Georges Werler وهي نفس المسرحية التي تعرض منذ عام ١٩٩٤ وحتى الآن. شاهدت أنا وزوجي «بوكيه» يمثل في عام ١٩٨٨، وكان ذلك في مسرح «ايبرتو» أيضًا. كان يمثل آنذاك دورًا في مسرحية «موليير» «البخيل». كان «ميشيل بوكيه» في عام ٢٠١٤ أفضل من أي وقت مضى. وقلت لنفسي إنها نعمة أن أرى نفس الممثل في نفس المسرح بعد مرور عشرات السنين. ذهبت بعد العرض، وبعد أن عرفت خبر الميلاد السعيد، مع «آنا ڤير» إلى مطعم «ڤيپلر» في ميدان «كليشي» واحتفلنا مع العديد من كؤوس الشمبانيا. وبعد سنتين من ذلك التاريخ، كنت أجلس مع صديقة لي في أوبرا برلين الكوميدية وأشاهد مسرحية «سيدتي الجميلة». احتفلنا بمولد حفيدي الثاني على شرفة فندق «غراند ڤستين» وظللنا هناك لوقت متأخر من الليل. كان الوقت صيفًا، والناس منتشرة في ميدان «جندرمن ماركت» وفي المطاعم والشوارع المحيطة. أكثر ما أقدره في وجود أحفادي هو تقليص الفجوة بين الأجيال: فأنت مع وجود

الأحفاد لا تحتاج إلى أن تشرح لأولادك مقدار حبك لهم. فقد أصبحوا يعرفون ذلك بالفعل الآن.

مررنا بالسيارة عبر أحياء «ميشون» و«كاسترو» التي خضعت في العشر سنوات الأخيرة للتحسين. كانت عمليات الإخلاء القسري أمرًا معتادًا بعد أن أخذت المدن التي بناها المشردون تنمو وتتمدد وسط الطرق السريعة في المدينة. أقرأ باهتمام كبير حوارات عديدة نشرت في كتاب «وادي السيليكون. سان فرانسيسكو تحت ظلال الوادي الممتدة» Silicon Valley: San Francisco in the Long Shadow of the Valley للكاتب «كاري مكليلاند» .Cary McClelland نقرأ على واجهات البيوت: «أطردوا الهيبستر»[1] Hipsters out ومن فوق أسطح البيوت ترفرف رايات قوس القزح. تنقل منظمات الإغاثة المتضررين القادرين ماديًا إلى بيوت عائلات مستعدة لاستضافتهم في بيركلي وألباني وبيدمونت يقضون فيها فترة من الوقت حتى يعثروا على بيوت للإيجار في مناطق أخرى في المدينة أقل سعرًا.

يقام حفل عيد الميلاد في بيت ضخم نشاهد مثله في أفلام هوليوود القديمة، وهو من البيوت التي لا يمكن تحمل نفقات صيانتها إلا في حالة اشتراك أكثر من عائلة في الإقامة فيه. لا أعرف أحدًا في هذا الحفل. أشعر إلى حد ما أن هذا المكان ليس مكاني،

(١) تعبير كان يصف في الأربعينيات شباب الطبقة الوسطى والذين يحتذون بأسلوب حياة موسيقى الجاز الأميركيين من أصل أفريقي. أما اليوم فكلمة «هيبستر» تعني الشباب الذين يهتمون بالثقافة والفنون بشكل أكثر من غيرهم. (المترجمة)

فقد كنت أكبر من كل الحاضرين سنًا بسنوات كثيرة، كما أنني لم أفهم الموضوعات التي تدور حولها الأحاديث. يعمل أغلب الحاضرين في شركة تويتر أو في مكاتب محاماة متخصصة في قوانين العقارات. تشفق المضيفة علي، فتقول: «ستأتي جدة ألمانية أخرى بعد قليل، لقد خرجت فقط لفترة قصيرة مع ابنتها والرضيع وستعود حالاً.» وأقول بيني وبين نفسي، شكرًا للرب، جدة ألمانية أخرى. تدخل «غابي» وهي تحمل حفيدها على ذراعها، ونبدأ فورًا حديثًا مكثفًا كأنما شعرنا أن علينا مسؤولية أن يستمر التواصل بيننا ثانية تلو الأخرى. ولأننا لا نعرف الوقت المتبقي لنا للتعرف على بعضنا البعض، أخذت كل واحدة تسرد للأخرى قصة حياتها في ثلاثين دقيقة. تقيم «جابي» بالقرب من مدينة كوبلنتس في ألمانيا، وتعمل لدى إحدى الشركات في فرانكفورت، تعمل في معظم الأوقات من البيت. إنها تشبه «باربارا كاتس منديس» في بهجتها ومرونتها. لكن لم يزعجني ذلك في عصر ذلك اليوم. فنحن في نفس الموقف، موقف من يحب عن بعد، ونعيش تجربة متشابهة في منطقة خليج سان فرانسيسكو. نتحدث بالألمانية بصوت عال. أدرك أنه تصرف غير مهذب، فأنا عادة أجد أنه من الوقاحة أن يتحدث اثنان أو ثلاثة بلغتهم الأم وسط مجموعة من الناس لا يفهمون تلك اللغة.

احتفالات أعياد ميلاد الأطفال مرهقة. إنها أسهل في كاليفورنيا، حيث يحضر الأبوان كالضيوف، فالمسافات واسعة وحجم البيوت

كبير. كان الاحتفال بأعياد ميلاد أولادي في تاونوس هي الأيام الثلاثة الوحيدة في العام التي أندم فيها على كوني أمًا. إنه تحد كبير أن تستضيف هذا العدد الكبير من أطفال الآخرين. أتذكر مقطعًا من كتاب «يوميات برلين» Berliner Journal لـ«ماكس فريش» يصف فيه زيارة بعض الأصدقاء له في شقته مصطحبين أطفالهم. إنه نص ممتع في قراءته: يشعر «ماكس» بالتوتر، أما زوجته «ماريانا» فهي تتصرف بلطف. أصدرت دار نشر «زوركامپ» هذه الطبعة من الكتاب في نفس العام الذي ولدت فيه حفيدتي. فات الأوان على الشعور بتأنيب الضمير على ما حدث في الثمانينات.

أكثر ما أثار حفظيتي تجاه الأطفال كان الفانوس التاسع الذي صنعته من أجل موكب عيد القديس مارتين[1]. فقد كانت روضة الأطفال في هوفهايم ـ ڤيلدزاكسن تطلب من الأمهات صناعة هذا الفانوس كل عام يدويًا. ثلاثة أطفال قضى كل منهم ثلاث سنوات مختلفة في روضة الأطفال، فيصبح المجموع تسعة فوانيس لموكب القديس مارتين. رفضت إدارة روضة الأطفال اقتراحي باستخدام

---

(١) كان «مارتين فون تور» Martin von Tours (٣١٦ ـ ٣٨٩) ثالث أسقف لمدينة تور في فرنسا. يحكى أنه كان في بداية حياته جنديًا في الجيش الروماني. وفي إحدى الليالي الباردة قابل شحاذًا طلب منه المساعدة، فقسم «مارتين» معطفه نصفين وأعطى الشحاذ النصف والتحف هو بالنصف الآخر. وفي الليلة التالية تجلى له المسيح في مظهر شحاذ. كان هذا الحدث ما جعل «مارتين» يتحول إلى الرهبنة ثم يتخذ منصب الأسقف، وبعد موته، أعلنه البابا شخصية مقدسة بسبب أعماله الطيبة وعرف بأنه حامي الشحاذين والجنود. (المترجمة)

فانوس العام الماضي، لأن الفانوس يعكس كل عام موضوعًا مختلفًا. وأنا لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن الموضوعات المرتبطة بشخصية القديس مارتين كثيرة لهذه الدرجة. لم أذكر أيضًا الاستدامة لأن هذه الكلمة لم تكن في منتصف الثمانينات جزءًا من مفرداتنا اليومية. أدركت المربية في الحضانة فورًا كراهيتي لصنع أي شيء يدويًا. كان بإمكان كتاب «ماكس فريش» «يوميات برلين» مساعدتي كثيرًا في ذلك الوقت، كذلك فكرة الاستدامة. ولكني توجهت، بدلاً من ذلك، مع أمهات أخريات إلى قاعة «ڤيلدزاكسن» لتناول البيرة، وهناك انتهى موكب الاحتفال نهاية مريحة.

إنه وقت ما قبل أعياد الميلاد في كاليفورنيا والطقس مشمس، نذهب لحضور حفلات أعياد الميلاد الموسيقية المقامة للأطفال: إحداها في «سيمفوني هول» في سان فرانسيسكو والأخرى في «مسرح باراماونت» في أوكلاند. يرتدي جميع الأطفال في سان فرانسيسكو ملابس تشبه ملابس «الأمير ويليام» والدوقة «كيت». إنه أمر مخيف بقدر ما هو جميل. كان عرض الباليه عن «مستر غرينتش»[١] Mr Grinch أبرز ما في الحفل، وبعد ذلك كان يمكن للزوار الصغار الذهاب إلى الأكشاك الكثيرة المقامة في البهو لممارسة الحرف اليدوية أو لتناول الحلوى أو مشاهدة الآلات الموسيقية، في حين يتجول الكبار في المكان.

يعرض مسرح بيركلي للأطفال مسرحية بديعة مأخوذة عن كتاب

(١) شخصية كرتونية. (المترجمة)

«تود والضفدع» للكاتب «أرنولد لوبلز» Arnold Lobels. نذهب أيضًا قبل أعياد الميلاد مباشرة إلى مكتبة استعارة الكتب في مقاطعة كونترا كوستا التي تستضيف عرضًا للدمى. وبعدما أنهينا برنامجنا الثقافي للاحتفال بأعياد الميلاد لعام ٢٠١٩، أسأل أحفادي أي من الحفلات الموسيقية أو المسرحيات أعجبهم أكثر. يتفقان في إجابتهم على أن مسرحية الدمى هي أكثر ما أعجبهم. إنها العرض المجاني الوحيد من بين كل تلك العروض. سوف أستفسر عن العرض القادم لمسرح أوغسبورغ للدمى في خليج سان فرانسيسكو، والأمر المثير للدهشة أننا نقرأ الآن أن أعضاء مجالس إدارة الصناعات الرقمية يرسلون أطفالهم إلى مدارس الأنثروبوسوفيا.(١)

لو كنت رأيت فيلمًا واحدًا في حياتي عن الخيال العلمي، لكنت قد عرفت قبل عام ٢٠١٩ معلومات كافية عن «قاعة لورنس للعلوم»، أو مركز العلوم العام في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. صور في هذه القاعة فيلم «THX 1138»، وهو أول فيلم أخرجه

---

(١) مدارس الأنثروبوسوفيا أو مدارس طريقة شتاينر/فالدورف هي مدارس تستند إلى تعاليم الفيلسوف النمساوي «رودولف شتاينر» Rudolf Steiner الذي طور نموذجًا تعليميًا يركز على تطور الطفل من جميع النواحي: جسديًا ومعنويًا ومعرفيًا وروحيًا. وتشجع هذه المدارس الأطفال على اللعب والتفاعل مع بيئتهم بدلاً من طريقة التدريس الأكاديمية التقليدية. تركز الكاتبة هنا على المفارقة بين مديري الشركات الأثرياء الذين يعملون لدى كيانات تستغل الآخرين في حين يرسلون أطفالهم إلى مدارس تروج للسلام الروحاني والحياة الوادعة الهادئة ولا تهتم كثيرًا بتحقيق الربح والإنجازات مثلما يحدث في الشركات الكبيرة. (المترجمة)

المخرج الأمريكي «جورج لوكاس» George Lucas في عام ١٩٧١. وتستخدم هذه القاعة أيضًا في أفلام الخيال العلمي الأخرى، وتظهر فيها كمركز من مراكز القيادة. أهدتني زوجة ابني تذكرة عائلية سنوية لزيارة المركز. نذهب أنا وأحفادي إلى هناك مرة كل أسبوع على الأقل. صمم المركز لتلبية احتياجات الأطفال بين سن الثالثة والثانية عشرة، وفيه تقدم لهم العلوم عن طريق الألعاب. يبقى أحفادي هناك لمدة ثلاث ساعات يلعبون ويندهشون بلا كلل. تتنوع الموضوعات التي يقدمها المركز من الديناصورات وحتى القبة السماوية، ومن بناء السدود في حديقة المركز حتى استخدام الذكاء الاصطناعي. يقدم المركز يوميًا في الساعة الرابعة عصرًا محاضرة مبسطة عن سلوك الحيوانات الحية المختلفة: فنتعلم بعض الأمور عن الثعابين والسلاحف والحلزونات والعناكب والببغاوات. تغلق قاعة لورنس للعلوم أبوابها في الساعة الخامسة، فيقوم أحفادي والأطفال الآخرون بتسلق الحوت الضخم المقام أمام القاعة بينما أستمتع أنا بتأمل ألوان الغروب الذي يهبط على جسر غولدن غيت وعلى سان فرانسيسكو. تلك هي لحظات في الحياة تستطيع أن تلمس فيها السعادة بيديك.

أذهب في أثناء تواجدي في بيركلي مرة واحدة على الأقل إلى وادي السيليكون في مينلو بارك، أو أذهب إلى بالو ألتو أو جامعة ستانفورد. دعاني في نوفمبر ٢٠١٩ كل من «هانس أولريش غومبرشت» Hans Ulrich Gumbrecht و«روبرت هاريسون» Robert Harrison إلى حلقتهما الدراسية المشتركة بمناسبة زيارة الفيلسوف

الألماني «بيتر سولترتشك» Peter Sloterdijk للجامعة. «روبرت هاريسون» أحد المدافعين عن سرد القصص وينصح طلبته «إقرأوا كتاب «بوكاتشيو» «ديكاميرون»، وابدأوا في الحكي بأنفسكم.» ينتقد «هاريسون» غياب فن الحكي الشفاهي، ينتقد غياب «سرد الأقاصيص» لصالح إنشاء محتوى يُقدم على منصات البث المباشر. في ذلك الوقت، لم نكن قد عرفنا أي شيء بعد عن جائحة كورونا. ولكن في أثناء الجائحة نصح العديد من الناس في شتى أنحاء العالم بقراءة أعمال «بوكاتشيو» Boccacio و«كامو» Camus و«غارسيا ماركيز» Garcia Marquez «ومانزوني» Manzoni . أذهب قبل بداية الحلقة الدراسية لمشاهدة معرض نظمه طلبة كليات الفنون في قاعة الفنون بالجامعة. أعجبني بشكل خاص ما عرضته الفنانة «آني نغ» Annie Ng بعنوان «أنا وما أملكه» Me and Mine، وفيه تعبر في عشر مطبوعات رقمية عن اضطراب الهوية الثقافية الذي تعاني منه. فهي صينية ولدت في هونغ كونغ وتلقت تعليمًا بريطانيًا، فتشعر بنفسها مثل *الموزة*: القشرة صفراء ولون الموزة من الداخل أبيض، «*وجه أصفر yellowface و«كولونيالية*». تمثل هذه السلسلة من المطبوعات بالنسبة للفنانة «تعبيرًا عن التوق إلى الانتماء» كما نفهم ذلك من الوصف القصير لعملها الفني. بعد انتهاء الندوة يذهب الطلبة والمحاضرون والضيوف إلى مطعم عربي في مينلو بارك، أتعرف على ممثل المركز الثقافي النمساوي في سان فرانسيسكو وانخرطنا على الفور في وضع الخطط لإقامة حوار ثقافي بين أوروبا ووادي السليكون. ساهم كلانا بخبراته الشخصية. أوصيتُ باشراك

جمعية مترجمي الأدب الأمريكية American Literary Translators Association (ALTA).

دعيت إلى جامعة تكساس في دالاس لأحضر مؤتمرًا بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيس جمعية مترجمي الأدب الأمريكي، أقيم المؤتمر من ٧ إلى ١٠ نوفمبر ٢٠١٧ وكان بعنوان «الاحتفال بالماضي / تخيل المستقبل» Celebrating the Past/Imagining the Future كان «راينر شولته» Rainer Schulte الأكاديمي المتخصص في الأدب هو من وجه لي الدعوة. أنهى «شولته» أطروحته للدكتوراه في عام ١٩٦٥ عن أعمال «هنري جيمس» Henry James و«مارسيل بروست» Marcel Proust. حضر المؤتمر مترجمون أمريكيون يترجمون عن عشرين لغة، ودارت بينهم وبين ضيوف آخرين من مجالات ثقافية أخرى نقاشات استمرت طيلة هذه الأيام الأربعة. دُعي أيضًا الكاتب والناقد الأدبي الألماني «دنيس شيك» Denis Scheck لحضور المؤتمر. اشترك كلانا في ندوة بعنوان «كيفية الترويج للأدب العالمي في الولايات المتحدة الأمريكية» How to promote International Literature in the United States. ألقى «دنيس شيك» محاضرة رائعة. ولسوء الحظ أتى دوري في الحديث بعده مباشرة. تحدثت في أمور تقنية خاصة بعقود بيع الحقوق على المستوى الدولي، كما تحدثت عن النجاح الذي حققته دار نشر «زوركامپ»، فبدا كلامي مملاً بعد البانوراما السياسية التي قدمها «شيك». زرت متحف «الطابق السادس» عن «كينيدي» في منطقة

ديلي بلازا قبل حضور المؤتمر، المتحف في الطابق السادس من المبنى الذي كان مخزنًا لكتب مدرسة تكساس، وهو نفس المبنى الذي أطلق منه القاتل «لي هارفي أوزوالد» Lee Harvey Oswald الرصاصات المميتة التي أودت بحياة «جون ف كينيدي».

اتفقت مع موظفي المركز الثقافي النمساوي على اللقاء مرة أخرى في مارس ٢٠٢٠، وهو اللقاء الذي لم يحدث بسبب جائحة كورونا. حدد في شهر ديسمبر تواريخ لرحلتين مدرسيتين ستقوم بهما حفيدتي، الأولى إلى الحديقة النباتية خلف الحرم الجامعي في بيركلي. اسمي موجود على قائمة المرافقين المحتملين للإشراف على الأطفال، وهكذا سمح لي أن أرافقها. يقسم تلاميذ الفصل وعددهم ستة عشر تلميذًا وتلميذة إلى أربع مجموعات، وعينت لكل مجموعة أستاذة متقاعدة متخصصة في الأحياء أو مدرسة أحياء متقاعدة. تشرح الأستاذة للأطفال النباتات وأشجار السيكويا وعلاقة كل ذلك بجدول الماء الذي يجري متعرجًا خلال الحديقة. أقول لنفسي: يا لها من رفاهية، أستاذة لكل أربعة أطفال. تسألني الأستاذة في وسط الجولة عن حفيدتي وأي واحدة هي من بين الأطفال الأربعة. تخيلت للحظة أنها تسخر مني، لأن بشرة الأطفال الثلاثة الآخرين ليست بيضاء. لكنني أدركت في اللحظة التالية ولحسن الحظ أنها جادة في سؤالها. بالطبع، فأي طفل من الأطفال الثلاثة يمكن أن يكون حفيدي، أنا فقط لم أفهم ذلك. شكرًا للدرس الذي تعلمته لتوي! أتعلم درسًا آخر في المسبح ذي الدوامات في النادي

الرياضي الخاص بجمعية الشبان المسيحيين في وسط مدينة بيركلي، فالتنوع العرقي في هذا المكان أكثر من التنوع الموجود في نواد شبيهة في ألمانيا. أفكر أننا لابد أن نكثر من برامج التبادل الحكومية: برامج للشباب وكبار السن.

سجلت نفسي في مدرسة حفيدتي لأقدم عرضًا أشرح فيه مهنتي بالرغم من أني لم أعد أمارسها بنشاط منذ ثلاثة شهور. سأطلق على هذا العرض عنوان «ناشر». لم تكن تلك المهنة موجودة ضمن العروض التي قدمت في السنوات الماضية. هل لي أن أوصي بهذه المهنة غير الشائعة في كاليفورنيا؟ أتمنى ألا أفشل في العرض: فالحكايات في منطقة خليج سان فرانسيسكو وبالقرب من وادي السيليكون لها طابع مختلف كلية.



برلين

أسير في يناير ٢٠٢٠ على ضفة نهر الهافل، أسير من جاتوف وحتى كلادوف كما أفعل كل يوم تقريبًا منذ أن تقاعدت. أمشي لأقوم بمشترياتي، أمشي إلى مكتب البريد، إلى ماكينات سحب النقود، إلى الصيدلية، إلى مكتبة بيع الكتب. أفكر في شيء ما يجب إنجازه ثم أبدأ المشي. فأنا لن أمارس رياضة الشي لو لم يكن ثمة شيء يجب إنجازه. لا أمارس الرياضة كثيرًا، ولهذا أتخذ من مهمة يجب إنجازها في كلادوف ذريعة لأجبر نفسي على المشي. إنه طريق سيري إلى المتاجر إذا جاز التعبير. أدرك أبنائي في صغرهم بسرعة كراهيتي للمشي والتجوال لمسافات طويلة، وكانوا يقولون: «أمنا تحب المشي إلى المطعم التالي فقط.» المكان الذي يطل على نهر الهافل هو أجمل مناطق المدينة. نادرًا ما أتناول القهوة في مطعم «غوتسهاوس» في «نويكلادوف» لأني لم أعد أتردد إلا على مطاعم منطقة كلادوف في معظم الأحيان. يطل مطعم «غوتسهاوس» على نهر الهافل وعلى بحيرة «فانزيه». يجلس إلى المائدة المجاورة زوجان يراقبان من خلال النافذة زوجين آخرين يجلسان في الحديقة. تقول المرأة: «إنهما امرأتان.» ـ فيقول الرجل:

«لا، إنهما رجلان.» تجيب المرأة أن تلك التي تحمل حقيبة الظهر الحمراء هي بالتأكيد امرأة. لم يتفقا في الرأي ـ وأنا شعرت أني أريد العودة إلى دياري في كاليفورنيا، حيث تلك المناقشات السخيفة عن النوع غير واردة إطلاقًا.

بيركلي

كان فبراير من عام ٢٠٢٠ شهرًا دافئًا ومشمسًا بشكل خاص في شمال كاليفورنيا. تتفتح زهور المغنوليا في كل مكان، ومشهد الأنوار وهي تحيط بجسر غولدن غيت ووسط مدينة سان فرانسيسكو وساسليتو ومنطقة الخليج مشهد يبهر الأنفاس. تروج سان فرانسيسكو لنفسها كأجمل مدينة في العالم. يمكن أن نسمح بذلك الوصف، ولكنه يصبح غير منطقي مع وجود ملايين الأماكن في العالم التي تدعي نفس الشيء. سنذهب أنا وحفيدتي بمجرد وصولي إلى حفل العائلة الموسيقي في قاعة السيمفوني هول في سان فرانسيسكو.

لم يكن أبواي يهتمان بفنون الأوبرا. كان أبي يملك صوتًا جميلاً من طبقة الباريتون، وكان ينطلق أحيانًا بغناء أغنيات من أوبرا «جوقة الصيادين» للموسيقار «ڤيبر» Weber أو من أوبرا «حلاق إشبيلية» لـ«فيغارو»، لكن أمي التي أقامت لفترات طويلة في المصحات كانت تجد أي صوت عاليًا، فحتى صوت شوكتي عندما تصطك بالطبق كان يبدو عاليًا بالنسبة لها. وكان أبي يجيب بأن المغنين في الأوبرا يغنون هذه النصوص بصوت أعلى من صوته مرتين أو ثلاثة حتى

يتمكن المشاهد في الصف الأخير في المسرح من سماعه. كان يسخر أيضًا من زوار الأوبرا الذين كان يجدهم متصنعين، لكنه كان يقول ذلك بطريقة لم تمنعني عن حب الأوبرا والاستمتاع بها، ولم تمنعني عن الرغبة في زيارة أوبرا فرانكفورت في أقرب وقت ممكن.

كانت جدتي لأبي تحب «ڤاغنر». أما أمي فكانت تقول إنه نازي. استغرق الأمر مني عقودًا حتى استطعت أن أتغلب في داخلي على الحواجز تجاه «ڤاغنر وأسمعه وأفهمه. تلقيت في أعياد الميلاد في عام ١٩٦٣ أسطوانة عليها أغان منفردة من أوبرا «موتسارت» «الناي السحري». أخذت أستمع إليها بلا انقطاع، ووقعت في حب «ڤالتر بيري» Walter Berry في دور «باپاغانو» Papagano .

كان مبنى الأوبرا القديم يقع في آخر شارع «بيكنهايمر» الكبير، في الزقاق الذي يطلق عليه «زقاق الشراهة» Fressgass، وكان في الستينيات من القرن الماضي مجرد أطلال سوداء. تباينت آراء الأحزاب والمواطنين حول إعادة بناء الأوبرا. قدمت الأوبرا في الفترة من ١٩٥١ وحتى ١٩٦٠ عروضها في مسرح «شاوشبيلهاوس». تلك هي الفترة التي ساعد فيها «جورج سولتي»[1] Georg Solti أوبرا فرانكفورت لتعود إلى سابق شهرتها .ظهرت

---

(١) جورج سولتي ولد عام ١٩١٢ وتوفي عام ١٩٩٧، مايسترو بريطاني من أصل مجري. عين «سولتي» في ميونخ مديرًا لدار الأوبرا البافارية، وفي عام ١٩٥٢ انتقل إلى أوبرا فرانكفورت وبقي هناك لمدة تسع سنوات. (المترجمة)

مبادرات لا حصر لها للدعاية لإعادة بناء الأوبرا القديمة بالرغم من وجود أماكن عرض جديدة عديدة في ميدان «ڤيلي براندت». هكذا تبنى تلاميذ وتلميذات الصف الثانوي في مدرسة «هاينريش فون غاغرن» الثانوية حملة لجمع الأموال من أجل إعادة بناء الأوبرا القديمة. أُعلن أن الجائزة الأولى ستكون سيارة فولكس فاغن خنفساء وستمنح لمن استطاع جمع أكبر مبلغ من التبرعات. لم أتوقع أن أحصل عليها، فمعظم السكان في منطقة بورنهايم في فرانكفورت كانوا ينفرون من فن الأوبرا أكثر مما كان أبواي ينفران منها، كما لم يكونوا مهتمين بالفنون ولا بالموسيقى، وبالإضافة إلى ذلك، فلم يكن لديهم آنذاك فائضًا من الأموال لينفقوه على الثقافة واعتبروا أن إعادة بناء الأوبرا القديمة هدرًا للموارد المالية لأنه سيكلف أموالاً طائلة. كنت أعرف هذا كله، وبالرغم من ذلك فقد أخذت أتنقل في منطقة بورنهايم حاملة صندوقًا من الصفيح أجمع فيه التبرعات. كنت أرى أن جمع الأموال من أجل الأوبرا منطقيًا أكثر من جمع الأموال لمصحة «موترغنيزونغ»(1) *Müttergenesung* الخيرية، وهو ما قمت به مرة واحدة وكنا نعطي وردة لكل من يتبرع. تنازعنا أنا وصديقتي الحميمة حول من يمسك بصندوق

---

(١) مؤسسة خيرية اسمها بالكامل Elly Heus-Knapp-Stiftung, Deutsches Müttergenesungswerk وأسستها في عام ١٩٥٠ «إلي هويس» زوجة الرئيس الألماني «تيودور هويس» Theodor Heuss. وتهتم المصحة بصحة الأمهات ورفاهيتهم. (المترجمة)

التبرعات ومن يوزع الورود. لم تكن أهمية مصحة «موترغنيزونغ» واضحة بالنسبة لي، فأمي كانت صحتها ضعيفة ولكن ليس بسبب كثرة الأطفال ولا بسبب الأعمال المنزلية وإنما بسبب النازي والأمراض. كان أبي هو من يقوم بمعظم الأعمال المنزلية، وكنا، أنا وأبي، نرعى أمي كثيرًا. أعتقد أنه كان من الأفضل لو جمعت التبرعات من أجل صحة ورفاهية الأطفال والآباء. على أية حال، فإننا الآن نجمع التبرعات للأوبرا القديمة. عرض علينا مدرس الفصل صورًا لشكل الأوبرا عند افتتاحها في عام ١٨٨٠. كان مبنى رائع الجمال. أخذت أتخيل أن «ڤالتر بيري» يغني هناك وأني أجلس وسط جمهور المشاهدين. كان ذلك دافعًا كافيًا بالنسبة لي. كان أمامنا ثلاثة أسابيع نجمع خلالها النقود ثم نسلم صناديق التبرعات وعليها أسماؤنا. ثلاثة أسابيع نجوب فيها الشوارع هنا وهناك. شارع «لوفنغاسه»، أعلى شارع «برغرشتراسه»، شارع «بوخڤالد»، شارع «انهايدنر». أعلن عن توزيع جوائز قيمة على أول عشرة أطفال جمعوا أكبر التبرعات، وستوزع عليهم الجوائز في احتفالية في دار الأوبرا والمسرح الجديد، وسيتلقى الأربعون طفلاً الآخرون كتابًا، وسيدعى خمسمائة طفل إلى الاحتفالية. كنت من بين من دعي إلى الاحتفالية ولم يكن ترتيبي سيئًا: فقد كنت رقم ٣٧٩. رافقني أبي إلى الأوبرا حيث لم يعرض سوى ثلاث أغنيات منفردة من أوبرات ثلاثة، ولكني عرفت آنذاك أن هذا هو المكان الذي أريد أن أبقى فيه إلى الأبد. حصل أولاد كبير أطباء الجراحة في مستشفى جامعة فرانكفورت على المركز الأول في جمع التبرعات وفازوا بالسيارة

الفولكس فاغن الخنفساء. كانوا يجمعون التبرعات في طريق «كينيدي» وفي شارع «مورفولدر لاندشتراسه» وفي مستشفى الجامعة. حييت زميلي وأخويه وصفقت لهم بقوة. كنت أعلم أن الإنجاز الذي قمت به بنفس القيمة: فقد حصلت على المركز ٣٧٩ بجمع تبرعات في منطقة بورنهايم ـ فرانكفورت. قال أبي عندما عدنا إلى المنزل: «أعتقد أنه يجب أن تتعلم الطفلة العزف على إحدى الآلات الموسيقية.» فأعقبت أمي: «إذا كان لابد من ذلك، فيجب أن تكون آلة ذات صوت خفيض ـ من أجل الجيران.» قررت أن أتعلم العزف على الفلوت ـ بسبب «ڤالتر بيري».

معظم المدارس العامة في بيركلي لها طابع المدارس الخاصة: المواد التي يدرسونها للأطفال والرحلات والأهم من كل ذلك كله برامج ما بعد المدرسة لتلاميذ رياض الأطفال، كلها أمور مدهشة للغاية. اختلط علي الأمر في أول يوم لحفيدتي في المدرسة، فهنا يطلق على الصف الأول «روضة الأطفال». يذهب الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة إلى مراكز رعاية الأطفال النهارية ثم ينتقلون بعدها إلى روضة الأطفال في المدرسة الابتدائية. استغرقت بعض الوقت لأفهم ذلك، خاصة لأن المصطلحات تختلف وفقًا للولاية. هذا ما يشعر به المهاجرون إذن، وفكرت في الجدات المقيمات في «ڤيدينغ» في برلين. لا يمكنك تصنيف ما تفهمه، كما لا يمكن أن تدرجه في سياق ما، لكن الأسوأ هو أنك لا تستطيع أن تقيس في معظم الأحيان ما الذي فهمته وما لم تفهمه، وهو ما يقوي من

إحساسي بعدم الأمان. يا لكثرة الأسئلة التي أريد طرحها يوميًا بخصوص ما يحدث من حولي، ولكني أمنع نفسي عن النطق بالسؤال حتى لا أفسد الهالة المحيطة بالجدة التي تقيم في خليج سان فرانسيسكو. لي هنا وضع مميز ناتج أيضًا عن أنني لا أتحدث كثيرًا مع من يماثلونني في العمر. أتحدث في السياسة مع الجيران الذين علقوا لافتات «بيرني ساندرز» في فبراير ٢٠٢٠ قبل يوم الثلاثاء الكبير[1] Super Tuesday، وأتحدث مع النساء في صالة الألعاب الرياضية عن التمارين الرياضية، وعن الطقس مع رواد الكنيسة يوم الأحد. إنها مجرد جمل قليلة أتبادلها مع الأمريكيين الودودين، فنحن نعيش في عوالم مختلفة. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى القداس في كنيسة «سانت ماري ماغدلين» في بيركلي، نظر القس في اتجاهي بعد انتهاء القداس وقال، ثمة زوار هنا، فليتفضلوا بالوقوف. أخبرت الموجودين عن البلد الذي أتيت منه، فصفقوا بقوة. هذا هو العرف هنا. يا لهذا البلد المضياف! لكن لم تسفر كل هذه اللقاءات عن صداقات، فتصريح إقامتي محدد المدة ويمنع إنشاء الروابط مع الناس، وهذا ما أتفهمه تمامًا، فالناس تحتاج إلى أن تشاركها الأحداث طوال العام حتى تبني معك صداقة.

---

(١) Super Tuesday هو اليوم الذي تجرى فيه الانتخابات التمهيدية في الولايات المتحدة الأمريكية ويكون يومًا في فبراير أو في مارس. (المترجمة)

لماذا يشغل هذا الدور الذي ألعبه، دور الجدة المهاجرة، تفكيري طوال الوقت؟ لأني لا أشعر بالأمان. فحتى لو بذلت مجهودًا كبيرًا، فلن أتمكن أبدًا من تعويض الستين عامًا التي عاشتها الجدات المولودات في كاليفورنيا، كما أن لا أحد يتوقع مني ذلك. لكني أريد أن أنتمي إلى المكان. أشعر بالحرج لأن أحفادي لديهم جدة لم تولد في كاليفورنيا. فحتى لو كان ذلك ينطبق على ٧٥٪ من زملائهم في الفصل، إلا أن رغبتي في الاندماج تبدو أكبر من رغبة الأجداد الآخرين القادمين من كل أنحاء العالم. تعرفت على جدتين هنديتين من كلكتا، تلك المدينة التي أعشقها، ووجدتهما تتعاملان مع الأمر باسترخاء أكثر مني، فهما لا تحاولان الاندماج في المجتمع الأمريكي، كما أن هنا أيضًا أمهات لا يسعين إلى ذلك. أصادف إحدى الأمهات العربيات في كل مرة أذهب فيها إلى المدرسة لأعود بحفيدتي إلى البيت، تتحدث الإنجليزية بصعوبة، ولكننا نستطيع رغم ذلك تبادل بعض الكلمات. تصل إلى المدرسة ظهر كل يوم قبل أن أصل أنا. إنها أول من يأتي وتبدأ في مشاهدة الأفلام العربية على هاتفها الذكي. لا تتحدث مع أحد سواي، فأنا من بادرت بالتحدث إليها ذات مرة بوصفي الأكبر سنًا. وعندما قلت لها إني ألمانية قالت بصوت عال انطلق عبر فناء المدرسة: «إن شاء الله»، الأمر الذي أثار انتباه الأهالي الآخرين إلينا: اثنان من الغرباء غير المنتمين إلى الجماعة.

كان أطفال فترة ما بعد الظهر في روضة مدرسة آرت ماغنت في

بيركلي على موعد في بداية مارس ٢٠٢٠ مع عمدة مدينة بيركلي، «جيس آريغين» الديمقراطي، Jess Arreguin، (ولد عام ١٩٨٤). عرض كل قسم من أقسام مجلس البلدية المهام التي يتولاها في إيجاز. الجميع مهتم في المقام الأول بتوفير بيوت للمدرسين والموظفين في المستشفيات بإيجارات معقولة حتى يجنبوهم مصير الناس في أحياء ميشون وكاسترو. يصمم أصحاب الرؤى المستقبلية في وادي السيليكون منتجات ذات أهمية للمجتمع كله، في حين يوجد في الجوار أناس يكافحون من أجل الحصول على مجرد مأوى كما كان يحدث في العصر الحجري. لا يمكن أن تتحول الآلات إلى آلات ذكية إلا عندما تترسخ احتياجات الإنسان الأساسية داخل الدورة الاقتصادية المعولمة ويصبح من المستحيل الاستغناء عنها. من المفترض ألا يكون الأمر صعبًا مع قدرات الذكاء الاصطناعي على التعرف على أنماط هذه الاحتياجات التقليدية واكتشافها.

تسبب لي منطقة خليج سان فرانسيسكو ووادي السيليكون الحيرة بشكل دائم ومتجدد بسبب تعقيدها، ولكنه تعقيد يسحرني دائمًا في كل مرة. ففيها وادي السيليكون كما توجد بها الشواطئ الواسعة المطلة على المحيط الهادئ وبها غابات أشجار الماموث، وفيها أيضًا مدينة سان فرانسيسكو حيث الرابحون والخاسرون في عصر الثقافة الرقمية، ويعمل بها جيش من الموردين الذين يقدمون الخدمات، وفيها مدن أصغر مثل ساوسليتو وبيركلي وريشموند وأوكلاند: كل مدينة لها طابعها الخاص. إنها منطقة تزخر بالآلاف

من الحالات الفردية، وأنا ما زلت أتعرف عليها منذ عشر سنوات وأستعين بتجاربي معها لأفهمها. إنها حالة مستمرة من محاولات التقارب.

وصل فيروس سارس ـ كوفيد ٢ إلى كاليفورنيا أيضًا. ووضعت سفينة سياحية في الحجر الصحي أمام أوكلاند. قررت ألا أذهب إلى حفل «باتي سميث» Patti Smith الموسيقي المقرر إقامته في ٩ مارس ٢٠٢٠ في قاعة الفيلهارموني. كنت أتطلع إلى هذا الحفل الموسيقي منذ شهور لأني أردت أن أعيش تجربة حضور حفلاً تغني فيه «باتي سميث» في سان فرانسيسكو وليس في برلين حيث تقدم كل عام حفلاً في قلعة «شپنداور». أقيم الحفل الموسيقي ولكن بدوني. صديقتي «باربرا كاتس ميندس» هي من ابتاعت لنا التذاكر، ولكنها قررت ألا يمنعها أي شيء عن حضور الحفل. غبطتها من جديد لقدرتها على التعامل مع الأمور باسترخاء. أما أنا، فآخذ كل الإشارات القادمة من ألمانيا على محمل الجد الشديد، وهي إشارات تؤكد على قدرتنا على مقاومة فيروس كورونا فقط إذا تجنبنا التجمعات الكبيرة. بدأ في منتصف مارس ٢٠٢٠ إلغاء الاحتفاليات في بيركلي، فألغي على سبيل المثال «يوم المهنة» Career Day في مدرسة «بيركلي أرتس ماغنت» والذي كنت قد سجلت نفسي فيه لأعرض معلوماتي عن المِهن في مجال النشر. لم أكن واثقة من كيفية توصيل هذا المحتوى إلى تلاميذ بين العاشرة والرابعة عشرة من عمرهم، فشعرت بالارتياح لإلغاء الحدث.

يتفاقم الوضع يومًا عن يوم. قرر الرئيس ترامب ألا يسمح للأوربيين بالقدوم إلى البلاد. وفي أوروبا يزداد الوضع سوءًا يومًا بعد يوم بسبب الجائحة. نخشى ألا تسيّر شركات الطيران رحلاتها بشكل منتظم إلى أوروبا. أقرر أن أغادر الولايات المتحدة قبل موعد عودتي الأصلي بشهر. بدأنا نخطط لرحلة العودة وعلمنا آنذاك بخبر إغلاق المدارس في منطقة خليج سان فرانسيسكو. نشرح لحفيدتي أننا سنضطر إلى تأجيل حفل عيد ميلادها السادس الذي كانت تتطلع إليه بشدة. أقص عليها كيف أني اضطررت ذات مرة لتأجيل الاحتفال بعيد ميلادي.

قالت أمي: إننا مضطرون للأسف إلى تأجيل الاحتفال بعيد ميلادك، فالرئيس «جون كينيدي» سيزور ألمانيا. عيد ميلادي التاسع كان في ٢٥ يونيو١٩٦٣، وهو اليوم الذي أتى فيه «جون كينيدي» إلى فرانكفورت على الماين ثم ذهب في اليوم التالي إلى برلين ليلقي خطبته التاريخية. جاء «كينيدي» من هاناو إلى فرانكفورت في سيارة مرسيدس مكشوفة، ورافقه كل من «لودفيغ ارهارد»[1] Ludwig Erhard ورئيس حكومة ولاية هسن «جورج أوغوست تسين» Georg August Zinn. وقفنا أنا وأبواي ننتظر لمدة ساعتين على ضفة نهر الماين بالقرب من الكاتدرائية حتى وصل موكب السيارات أخيرًا الذي اختفى بعد عشر ثوان فقط من أمام الحشود

(١) ثاني مستشار لجمهورية ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية) في الفترة من ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٦.(المترجمة)

المهللة. لم أر «كينيدي» حقًا، بالرغم من أن أبي رفعني عاليًا. كان أبواي، خاصة أمي من المعجبين المتحمسين للولايات المتحدة الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكي. عملت أمي بعد الحرب مربية أطفال لدى عائلة أمريكية في مدينة هايدلبرغ (اضطرت أن تتوقف عن هذا العمل في عام ١٩٤٩ بسبب مرضها). لهذا السبب كانت تجيد التحدث باللغة الإنجليزية وهو أمر غير شائع بين أبناء جيلها. كانت تقول: «نحن ندين للأمريكان بكل شيء، كل شيء.» وكان أبي يضيف: «وندين لديغول وتشرشل أيضًا» لم يكن تحمس أبوي للولايات المتحدة على المستوى السياسي فقط، فالموسيقى وأسلوب الحياة ـ كل شيء هناك كان أفضل كما يزعمان. كانا في منتصف الأربعينيات من عمرهما عندما تمكنا أخيرًا من القيام برحلات طويلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. علقا خريطة كبيرة للولايات المتحدة في المطبخ وكانا يضيفان إليها في كل عام مزيدًا من دبابيس الحائط الملونة. احتفلنا بعيد ميلادي في النهاية في يوم ٢٦ يونيو. ومثل كل عام، أعددنا كعكة الفراولة وفطيرة الشوكولاتة وسجق الفرانكفورتر وسلطة البطاطس. وقام أبي بتقديم بعض الألعاب السحرية لي ولستة آخرين من المدعوين. أهدتني صديقاتي أقلامًا ملونة ولعبة تدعى «رحلة في ألماني أخذنا نلعب بها بعد ذلك بلا انقطاع. لم تكن ألمانيا الشرقية موجودة في هذه اللعبة، ولكن بحيرة «تي تي زيه» كانت موجودة وكانت تظهر فوق لوح اللعب محاطة بأشجار الصنوبر. بكت أمي مساء يوم ٢٢ نوفمبر من عام ١٩٦٣ بعدما وصلها خبر اغتيال «جون كينيدي» في دالاس. وقالت

لي: «أنتِ على الأقل تمكنتِ من رؤيته.» لم أره، ولكن لم يكن ذلك مهمًا نظرًا لحالة الصدمة التي عمت الأجواء.

نشعر بعدم الأمان، نتخذ وضع القتال. نشجع بعضنا بعضًا. نرسم الفيروس على شكل وحش، ويمسك حفيدي بسيف فيلم حرب النجوم، الكون يقاوم.

لقد وقع الآن أكثر ما خشيته. أُجبرت على الانفصال عمن أحبهم بسبب الجائحة، فنحن لا نعيش في قارة واحدة. لا نستطيع أن نسير في اتجاه بعضنا البعض أو حتى نلوح لبعضنا البعض. نحتاج إلى مساعدة التكنولوجيا لنرى بعضنا بعضًا. يمثل الحب عن بعد تحديًا حتى لو كنا نحن من نتحكم في قراراتنا. لكن عندما يتحكم فينا آخرون، فإن التعليمات التي جمعناها خصيصًا للتغلب على الحب عن بعد تعجز عن مساعدتنا. كانت لي بعض تجارب الانفصال المؤلمة في طفولتي، لكنها لا تساعدني الآن، فبين تجربة انفصالي عن أمي آنذاك وبين انفصالي عن أحفادي اليوم ستون عامًا.

رباني كل من أبي وخالتي وأجدادي حتى عامي السادس، نادرًا ما كانت أمي حاضرة، لأنها كانت مريضة بالسل وتقضي معظم الأوقات في المصحة. وعندما كانت تتواجد معنا، كان الجميع يبكي، كانت أمي تنام كثيرًا، وأنا كان علي أن أكون هادئة، طفلة هادئة قارئة. فحتى قبل أن أتعلم القراءة، كنت أتصفح الكتب المصورة بالإضافة إلى ألبومات الصور التي يحتفظ بها أبواي عن مدن نابولي وصقلية، كما كنت أتصفح الإصدارات الخاصة بنادي

محبي الكتب. صورتي المفضلة كانت تلك التي تجلس فيها عائلة كبيرة من نابولي حول المائدة، عشرون شخصًا من أجيال مختلفة. أما أنا فكنت أجلس عادة إلى المائدة وحدي مع أبي. أبي والكتب: تلك كانت الدعامات التي ارتكزت عليها في طفولتي. أبي كان يرفه عني، يغدق علي المشاعر والنقود. عوضني ذلك في بعض الأيام عن وجود أسرة كبيرة كاملة كأسرة نابولي. كان أبي يعمل في مجلة متخصصة يصدرها نادي السيارات، وكان يُسمح له في نهاية الأسبوع بقيادة موديلات مختلفة من السيارات لاختبارها. كنا نسافر أنا وهو في الصيف إلى مدينة هايدلبرغ في سيارة مكشوفة لنزور أهل أمي الفارين من مدينة غدانسك. عاش جدي لأمي حربين عالميتين وفقد وطنه، فصمت ولم يعد ينطق إلا بعض الجمل في المساء بعد أن يحتسي نبيذ الراين الحلو أو شراب «دانسنغ جولدڤاسر». جدتي كانت على العكس من ذلك، فكانت تصيح في كل مرة عند وصولنا «يا للطفلة المسكينة.» أما خالتي «أنيتا» *Anita*، فكان حالها يتقلب بين المرح والشعور بالصدمة. كانت تدخن وتشرب الخمر ومخطوبة منذ وقت طويل لرجل تقول أمي عنه أنه نازي. عشت لمدة عام مع أجدادي وخالتي وكنت أرى أبي فقط في نهاية الأسبوع، إلى أن عاد بي إلى فرانكفورت من جديد. كنت قد نسيت أمي تقريبًا في أثناء ذلك. في خلال ذلك العام، عام هايدلبرغ إذا جاز التعبير، كان جداي يرسلاني أنا وخالتي، التي أصبحت في هذه الأثناء في الثلاثين من عمرها، كل يوم أحد إلى الكنيسة، أما هما، فكانا يحضران القداس المبكر. وفي أثناء الفترة التي كان من

المفترض أن نقضيها في القداس، كانت جدتي تحضر طعام الغداء. كان الغداء في معظم الأحوال إما بطة أو إوزة أو سمك الشبوط أو الكراكي المطبوخ على طريقة أهل غدانسك. تعجبت فيما بعد أن العائلات الأخرى لم تكن تأكل تلك الأصناف من الطعام إلا في أعياد الميلاد فقط. لكننا في كل الأحوال لم نكن نذهب إلى الكنيسة، ففي الطريق إلى هناك، كنا نعرج على شقة إحدى زميلات خالتي الأكبر سنًا والتي تقع شقتها بين شارع «ألبرت مايس» وشارع «سان بونيفاتيوس». وهناك تشرب المرأتان النبيذ الفوار وتدخنان، وأنا كنت أشرب عصير البرتقال، وكان يُسمح لي باللعب مع القطة. لكن لأن القطة لم تكن تطيقني، فكنت أراقب ابن صديقة خالتي «انيتا» من طرف عيني، كان طالبًا في كلية الطب ويقرأ طوال الوقت. لم يلحظ أحد عدم مشاركتنا في القداس لفترة طويلة حتى التقينا ذات يوم، أنا وجدتي، مساعد الكاهن في السوق الأسبوعي واندهش من تواجدي في هايدلبرغ. وقع في ذلك اليوم شجار عنيف بين الأم والابنة بعدما عادت الخالة «أنيتا» إلى البيت بعد انتهاء عملها في أحد متاجر شارع «هاوبتشتراسه». سمعت الخالة تقول «الكهنة المزيفون» وسمعت جدتي تقول شيئًا ما عن «غضب الرب». هكذا ذهبنا نحن الأربعة في يوم الأحد التالي إلى القداس الرئيسي في الساعة العاشرة، وقُدم الغداء في ذلك اليوم في وقت متأخر عن المعتاد. لكننا لم نستمر في هذا التقليد طويلاً، فتناول القربان يقتضي عدم شرب الخمر، وجدي لم يكن قادرًا على الابتعاد عن

الخمر لفترة طويلة، فقد كان يعاني من العديد من الجراح الجسدية والنفسية.

كان أبي يأتي إلينا بعد عودتنا من الكنيسة، يزور زوجته كل يوم سبت في المصحة التي تقع في الغابة السوداء، ويتوقف في طريق عودته في اليوم التالي في هايدلبرغ ليزور ابنته. كان يبقى معنا طوال يوم الأحد ويسافر في وقت متأخر بعدما أستغرق في النوم. وفي صباح يوم الاثنين، أظل أحدق في كتبي المصورة، وكنت أبكي أحيانًا، فتقول لي الخالة «أنيتا: «لا تبكِ، سأشتري لك سجائر الشوكولاتة.» كانت عطلة الخالة «أنيتا» يوم الاثنين بدلاً من يوم السبت. نذهب إلى محل الحلويات وندخن. تدخن «أنيتا» سجائر الستويفيسانت وأدخن أنا سجائر الشوكولاتة التي كان تدخينها أصعب من تدخين سيجارة الستويفيسانت لأن الورق يذوب في الفم، فأضطر إلى ابتلاعه مع الشوكولاتة.

بعد مرور عام، سئم أبي من رحلات نهاية الأسبوع، فجاء بي إلى فرانكفورت، وذهب بأمي إلى مصحة في مدينة «باد هومبورغ». بدأت «أنيتا» تأتي إلى زيارتنا في فرانكفورت بانتظام كل يوم سبت، كانت قد انتقلت للإقامة مع خطيبها في مانهايم بعدما صرت أقيم مع أبي. تأتي في قطار الساعة الرابعة عصرًا الذي يتوقف عند رصيف ٨. كانت ترتدي في الصيف زيًا أبيض اللون من قطعتين، وتبرز علبة سجائر «بيتر ستويفيسانت» من داخل حقيبة يدها الجلدية البيضاء. نأتي أنا وأبي إلى محطة القطار قبل وصولها بساعة. نأكل

أولاً سجق الفرانكفورتر ثم نذهب إلى سينما *AKI*، التي تعرض أفلامًا بدون توقف وتتغير فيها الأفلام المعروضة كل ٢٤ ساعة. أخبار ومسلسلات إنجليزية يعتقل فيها ضباط الشرطة وكلاب الجيرمان شيبرد اللصوص والمتحرشين جنسيًا. كانت السينما مظلمة ومخيفة، والمرشدة كانت توجهنا إلى مقاعدنا باستخدام مصباح يدوي، لم تكن المقاعد تحمل أرقامًا. كانت السينما تضم المشردين والعاهرات والمسافرين، وتمتلئ برائحة البول والنيكوتين. كنت أشعر آنذاك بالسعادة. فأبي كان لي وحدي، إلا أنه كان علي أن أتعلم فيما بعد مشاركته مع إنسانة أخرى. انتظرتُ أمي سنوات طوال، وعندما عادت لتقيم معنا أخيرًا بشكل دائم، لم تكن هي الأم التي انتظرتها. توجهنا ذات مرة بعد السينما إلى رصيف ٨، فرأينا قاطرة بخارية تتوقف عند رصيف ١. نزل من القاطرة أناس يحملون حقائب كثيرة. انحنى أبي ناحيتي وقال لي: «هذا هو القطار القادم من ألمانيا الشرقية.» تخيلت أن ألمانيا الشرقية بلد لا يعيش فيه سوى العجائز لأني لم أكن أعرف آنذاك أنه لا يسمح إلا للمواطنين من كبار السن بالحصول على تصريح بالسفر. تأكد لدي هذا الانطباع مع تكرار زيارات أهل خطيب الخالة السنوية، وكانت أمي تصفهما أيضًا بالنازيين. كان كلاهما: «هيلده» *Hilde* و«إيغون» *Egon* في سن متقدم. كانا يأتيان للاحتفال بأعياد الميلاد من «هويرسفيردا» إلى مانهايم حيث يعمل ابنهما في أحد وكالات شركة فورد للسيارات. لم يقل أحد أنهما نازيان سوى أمي، ولكن كان واضحًا للجميع أن مظهرهما مثل كل من كان يترجل من القطار

المتوقف عند رصيف ١. كانا يعاملاني بلطف. «إيجون» كان كبير المحاسبين في أحد مناجم الفحم في منطقة لوساتيا في أوروبا الوسطى، واستطاع بذلك الاحتفاظ بوظيفته والنجاة مع تعاقب الأنظمة السياسية المختلفة. كانت «هيلده» تملك صوتًا من طبقة السوبرانو وتشارك بالغناء في احتفالات أعياد الميلاد. يأتي الجميع إلينا في أعياد الميلاد: الجدان من هايدلبرغ و«أنيتا» و«إيرنفريد» Ehrenfried وأبواه. أنا كنت الطفلة الوحيدة. فكنت أجلس وسط هؤلاء الناس الذين يعانون جميعًا من صدمات نفسية وأتخيل أن هذا هو الوضع الطبيعي: الشجار بين «هيلده» وبين جدتي «أجنيس»، ومحاولات زوجيهما الفاشلة في تهدئتهما، وأمي التي كانت تلقي اللوم بشكل دائم على النازيين. أما العم زوج «أنيتا» فكان ينسحب كلما استطاع من هذه الدائرة ويذهب لزيارة فروع شركة «فورد جنرال موتورز» في فرانكفورت وأوفنباخ. يذهب أولاً بسيارته الفورد إلى الأمريكان في شارع اديكساليه، ثم يواصل القيادة إلى منطقة «جالوس» وإلى منطقة «فيشنهايم». كانت أمي تقول لأبويه: «إنه يتصرف بهذا الشكل بسبب تربيتكما النازية، فبدلاً من الاستماع إلى بركات البابا في الراديو وهو يلقي «رسالته إلى مدينة روما والعالم أجمع»، يذهب ليتفقد سياراته.» لم تلحظ أمي أبدًا أن خطيب الخالة وأبواه كانوا يتبعون المذهب البروتستانتي فلم يكونوا مهتمين كثيرًا ببركات البابا. كانت أمي تصّنف الناس إما مع النازي أو ضد النازي. انسحبت من التجمع لأقرأ كتابي الجديد. أهداني خطيب الخالة كتابًا مصورًا للأطفال عن الأوديسا. هكذا أصبحت «بينيلوبي» Penelope

مثلي الأعلى في عامي الدراسي الأول، فأنا تعلمت أن أكون في حالة انتظار شيء ما، أنتظر أمي، أنتظر أبي. ولهذا، فقد بدا لي إن انتظار «بينيلوبي» لزوجها لمدة عشرين عامًا أمرًا منطقيًا تمامًا. كان ذلك في أثناء الاحتفال بأعياد الميلاد في عام ١٩٦١، ولم أكن أتوقع آنذاك أبدًا أني سأضطر إلى استحضار قدرتي على الانتظار فيما بعد.

كانت الأيام الأربعة الأخيرة قبل عودتي إلى ألمانيا، التي أبكرت موعدها باختياري، أيامًا حزينة ومتسارعة في أحداثها. نحاول نحن الكبار ألا يبدو علينا التأثر. لم تكن المدارس وحدها هي ما أغلقت في منطقة خليج سان فرانسيسكو، فقد أغلقت أيضًا مكتبات الاستعارة وقاعة «لورنس» للعلوم وملاعب الأطفال وأغلق مسرح الطفل. نعيد أنا وأحفادي كل الكتب المستعارة إلى مكتبة كونترا كوستا. تصيح أمينة المكتبة مودعة: «إلى لقاء قريب وتمتعوا بالصحة.» نذهب بعد ذلك إلى متجرنا المفضل في بيركلي: «مستر مويس» لألعاب الأطفال. يبيعون هناك الألعاب والكتب. أشتري لأحفادي الكثير من الأشياء: ثمانية كتب، ليغو، سلاسل والكثير من الأشياء الصغيرة من ماركة «Darf ich das noch?» (هل يمكن أن أحصل على هذا أيضًا) ففي وقت الوداع، يمكن أن يحصلوا على أي شيء يرغبونه. سأحمل المتجر كله إليهم إذا استطعت. وفي المساء السابق لرحلتي وفي صباح يوم العودة نعيد قراءة كل الكتب لبعضنا بعضًا مرارًا وتكرارًا. أشعر بالبؤس. أقرأ بصوت عال وببهجة مبالغ فيها.

الحب عن بعد

III

في الفضاء الافتراضي بين برلين وبيركلي

ثمة عائلات أخرى انفصلت عن بعضها البعض أيضًا بسبب فيروس سارس ـ كوفيد ـ ٢. يواسيني ذلك بعض الشيء. يفصل الفيروس بين الجميع في المكان. إنه لا يفصل فقط بين ما يعيشون على ضفتين متقابلتين من الأطلنطي. يتواصل الناس عبر الفضاء الرقمي. وأنا معتادة على ذلك، يمكنني أن أكتب دليلاً موجزًا عن كيفية التواصل مع الأحفاد عبر الفضاء الرقمي. وسيكون الدليل خاصًا بالأحفاد الذي تتراوح أعمارهم بين العامين والستة أعوام. مسرح الدمى التقليدي ـ في طفولتي كنا نقول عنه مسرح «كاسبرله» Kasperletheater ـ مناسب للأطفال الذين بين ثلاثة وستة أعوام. القراءة بصوت عال خيار جيد مناسب للأطفال في كل الأعمار قبل أن يتعلموا القراءة: تحتاج إلى نسختين من نفس الكتاب، بحيث تمسك بالصور أمام الشاشة وتقرأ من النسخة الأخرى بصوت عال، ويمكن أن تبتاع نسخة واحدة ثم تمسح النص ضوئيًا أو تقوم بتصوير فيديو عن الكتاب والنص. قال لي الأستاذ «كونوف» بائع الكتب في كلادوف ذات مرة وأنا أدفع ثمن مشترياتي: «لقد اشتريتِ هذا الكتاب بالفعل من قبل.» قلت له أني أحتاج منه

نسختين من أجل مكالمة عبر سكايب. نظر إلي متعجبًا، فليس له أحفاد يعيشون في كاليفورنيا. الأشغال اليدوية والقص واللصق وتشكيل الصلصال، كلها أشكال تناسب المكالمات عبر السكايب والتطبيقات الأخرى. نحتاج إلى نسختين من كل شيء. نلعب حتى بالدمى في مكالماتنا. ما زلت أحتفظ بالدميتين «بيربل» Bärbel و«إديت» Edith، هكذا نستطيع أن نلعب أمام الشاشة لعبة العائلة أو المدرسة، وحفيدتي هي المعلمة التي يفتقدها الجميع الآن بشدة. ثمة شيء مميز في الدمية «إديت»: فقد أخلينا أنا وأبنائي بيتنا في تاونوس عندما انتقلت مع دار نشر «زوركامپ» إلى العاصمة. قمنا أنا وابنتي آنذاك باختيار بعض من الدمى الكثيرة التي تخص جيلين، لنحتفظ بها من أجل الجيل الثالث، ثم اخترنا الدمى التي سنتبرع بها إلى روضة الأطفال الإنجيلية في منطقة «هوفهايم ـ ڤيلدزاكسن»، وهي نفس دور الحضانة التي كانت تشترط صنع فانوس القديس مارتين. اخترنا الدمى بقلوب مثقلة، ذهبت «إديت» في البداية إلى سلة الدمى التي سنتبرع بها، لكني أعدتها من جديد إلى السلة الخاصة بالأحفاد. فقدت «إديت» شعرها وتخيلت أن لا أحد سوف يحبها وهي بدون شعر. لا أعرف السبب الذي جعلني لا أذهب بها إلى عيادة ترميم الدمى. سوف أعوض ذلك قبل أن أغادر برلين عائدة إلى جنوب البلاد الغربي.

أهداني الأستاذ «كونوڤ» كتابًا جديدًا صدر مؤخرًا عن دار نشر «كارلسن» ضمن سلسلة «كتب پيكسي» Pixi Büche غال يدوية

جديدة يوجد دائمًا ألالكتب وبها دائمارتينن لن التي صممتها الدار خصيصًا من أجل بائعي الكتب. يدور الكتاب حول عائلة تذهب إلى مكتبة فيرشح البائع، وقد ذُكر السيد «كونوف» فيه بالاسم، كتابًا مناسبًا لكل فرد من أفراد العائلة. يرشح البائع في هذه القصة كتابًا عن «البقرة الشجاعة» من أجل الابنة، وهو ما جعلني أضحك عاليًا أنا وحفيدتي حتى سألتني: «هل يوجد مثل هذا الكتاب فعلاً في الحقيقة؟» وعدتها أن أهتم بهذه المسألة الهامة فور عودتي إلى برلين. هكذا ذهبت ـ كما وعدت حفيدتي ـ إلى السيد «كونوف» وسألته. ابتسم السيد «كونوف» ورشح لي سلسلة كتب «ماما موو» Mama Muh الصادرة عن دار نشر «اوتينغر» Oetinger. اخترت نسختين من قصة «ماما موو تقرأ» وقرأته لأحفادي عبر سكايب.

بعد هذا الحديث الذي تسكن فيه الأبقار الكتب، وتتشكل حيوانات وحيد القرن وطيور البطريق من الصلصال، وتتحدث فيه الدمى في بيركلي مع الدمى في برلين، أجد نفسي من جديد مع «هولدرلين» Hölderlin. يقرأ «ينس هارتسر» Jens Harzer من كتاب «هايبريون» Hyperion بشكل رائع يفوق الوصف. هذا ما أقدره دائمًا في أبنائي وأحفادي، إنهم يحتاجون مني إلى مهارات لا علاقة لها بعالم الكبار، ولهذا أشتاق إلى العودة إلى هذه المهارات. إنها ملاذ للكبار.

الصداقات الوحيدة التي كونتها في منطقة خليج سان فرانسيسكو على مدار عشر سنوات كانت مع اثنتين من النساء، كلتاهما من

أمريكا الجنوبية. ولدت «باربرا كاتس منديس» في فنزويلا، وأصبحت باحثة متخصصة في علوم الاقتصاد واستطاعت تكوين ثروة في الولايات المتحدة. يعيش أبناؤها في تكساس وأستراليا. هي أيضًا لا تعرف متى يمكنها رؤية أحفادها الأربعة. أما الصيدلانية وخبيرة التربية «إيزابيل فيليبس» Isabel Philips فمن هندوراس وتدير برنامج رعاية الأطفال في فترة ما بعد الظهر في مدرسة «بيركلي أرت». يعيش أولادها وحفيدتها معها في بيركلي. إنه أمر مثير للإعجاب أنها تستطيع القيام بكل تلك الأنشطة: معارض رسم ومعارض للكتب، دروس اللغة الإسبانية، تنظيم زيارات إلى العمدة وإلى الجامعة. أظل على اتصال وثيق مع كلتا الصديقتين بعد عودتي الإجبارية إلى برلين. تكتب لي «إيزابيل» أن التدريس هذا العام لن يكون مباشرًا بحضور الأساتذة والتلاميذ. سيظل التدريس في عام ٢٠٢٠ عبر الإنترنت. كيف سيؤثر ذلك على الأطفال الذين بدأوا لتوهم في تعلم القراءة والكتابة والحساب؟ الذين تعلموا لتوهم أن يتلمسوا طريقهم وسط الأطفال الآخرين في المدرسة؟ ما الذي ستفعله هذه القيود بأطفالنا وأحفادنا؟ سيستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى نكتشف عواقب كل ذلك.

قضيت مع «إيزابيل» أمسية في مطعم وحانة «سيزار» المكتظ بالزبائن وتناولنا الشمبانيا، يبدو لي هذا المساء الآن وكأنه من حياة أخرى بالرغم من أنه لم يمر سوى ثلاثة أسابيع.

يدهشني وجود هذا العدد من الأشخاص القادرين على فهم

ووصف طريقة حياتنا بعد الجائحة وكيف ستتغير مجتمعاتنا. أنا لا أعرف كيف ستتغير. حتى «يورجن هابرماس» لا يعرف أيضًا. يقول في حوار أجرته معه جريدة «فرانكفورتر روندشاو» Frankfurter Rundschau اليومية: «إن مجتمعاتنا المعقدة تواجه دائمًا أوقاتًا من عدم اليقين، لكن كانت هذه الأوقات تأتي عادة في كل مجتمع على حدة ولا تأتي كلها في نفس الوقت، فيقوم كل مجتمع بمعالجة عدم اليقين داخل أنظمته الفرعية. لكن اليوم، فإن عدم اليقين ينتشر الآن على مستوى العالم وفي نفس الوقت.» ويستنتج من ذلك: «لم نكن نعرف من قبل الكثير عن جهلنا بالعديد من الأمور، كما لم نكن نعرف الكثير عن الضغوط التي نتعرض لها ونحن مضطرين للحياة والتعامل تحت وطأة عدم اليقين.» أستنتج ما سيحدث لحياتنا العائلية الموزعة على قارتين، أستنتج أن الحب عن بعد لن يصبح أسهل. ففي الأوقات العادية نتحدث عبر سكايب مرة واحدة أسبوعيًا، ولكننا في وقت الجائحة نتحدث أكثر. أقمنا مسابقة في الرسم عبر سكايب: نرسم أميرة، ورود في إصيص زرع، مروحة ودمية بحر. لا أعرف لماذا اقترحت دمية البحر بالرغم من أني لا أجيد الرسم. لكني اشتريت على أية حال أقلامًا جديدة ملونة تستقر الآن فوق طاولتي حتى نبدأ فورًا في الرسم عندما يتصل الأحفاد.

لم يسقط المطر في برلين منذ أسابيع. أنظر إلى حامل المظلات الذي يحوي مظلاتي الثلاثة وأشعر بالأسى. سيكون علينا أن نواجه مشكلات أخرى غير فيروس سارس ـ كوفيد ـ ٢. كلنا يعرف ذلك.

يرسل لي أحفادي فيديوهات لطيفة. لا أعرف بالتحديد ما الذي يمكن أن أصوره لأرسله لهم. فلم يحدث شيء يذكر في حياتي منذ منتصف مارس ٢٠٢٠. أقبع في بيتي في جاتوف أو أجلس في الحديقة المطلة على نهار الهافل. أما ما يحدث داخلي، فمن الصعب تصويره في فيلم. سوف أقود حالاً دراجتي لأتوجه إلى كلادوف وأسأل السيد «كونوف» إذا كان يسمح لي بتصوير فيلم في مكتبته، فأنا لا أعرف الكثير، فقط الكتب ونتفليكس. أشاهد في أثناء فترة الإغلاق التام مسلسل «القائمة السوداء» لساعات طوال. أداء «جيمس سپيدر» James Spader في دور «رايموند ردينغتون» Raymond Reddington، المجرم المثقف، أداء عبقري! لم أكن لأتحمل الإغلاق التام بدون المواسم السبعة من المسلسل. إنه عمل به الكثير من القتل والخيانة والانتقام والقسم بالولاء وعلاقة غامضة بين الأب وابنته والعديد من الاقتباسات من الأدب العالمي.

يزداد شوقي. جاء الخريف ومازلنا لا نعرف متى سنرى بعضنا البعض من جديد. وفي وسط مشاعر الشوق إلى العائلة المقيمة في قارة أخرى يتسرب لي شعور آخر: الشوق إلى بيركلي، إلى سان فرانسيسكو ومينلو بارك. يفاجئني هذا الشعور. هل صحيح أن كل شيء لم يكن بلا جدوى في النهاية؟ هل استطعت طوال هذه السنين التي زرت فيها المدينة بانتظام أن أفهم أكثر مما أعترف بأني فهمته؟ هل توجد في كاليفورنيا أماكن أشتاق إليها مثل تلك الأماكن في فرنسا ـ أماكن أرغب دائمًا في العودة إليها؟ أتخيل منطقة المطاعم

في شمال بيركلي كأنها الجنة. يشكل مطعم «شيه پانيس» محور الحي النابض بالحياة، إنه مطعم معروف للكثيرين في جميع أنحاء العالم حتى خارج أمريكا. أسس كل من «اليس واترز» Alice Waters و«پول أراتوڤ» Paul Aratow هذا المطعم الأسطوري في عام ١٩٧١. اختير الاسم تكريمًا لشخصية «أونوريه پانيس» Honoré Panisse nisse لحياة في عام ١٩٧١. الإسم ي كلن حلقات للوقت ثروة في الولايات المتحدةةن النساءحدث مع العرائس في برلين، تلك الشخصية المحبة للحياة في ثلاثية أفلام «مارسيل پانيول» Marcel Pagnol، التي استند فيها إلى ثلاثيته الروائية» ذكريات الطفولة» Souvenirs d'enfants. وعلى مقربة منه يقع مطعم «سولز ديلي» Saul's Deli الذي يقدم الطعام الكوشر وغير الكوشر(١)، وحيث نحب أنا وأحفادي تناول خبز الماتسا.(٢) على جدران المطعم صور كبيرة الحجم لحفلات زفاف يهودية واحتفالات البار متسفا(٣) والبات متسفا(٤). وإلى جانب «سولز ديلي» توجد مكتبة «بوكس انك» Books Inc : «أقدم مكتبة مستقلة لبيع الكتب في الغرب». للمكتبة أحد عشر فرعًا ويعمل بها مائتا موظف، كما أن

---

(١) الطعام الكوشر هو الطعام الحلال وفقًا للعقيدة اليهودية. (المترجمة)

(٢) خبز غير مخمر يتناوله اليهود في خلال عيد الفصح. (المترجمة)

(٣) حفل يهودي ديني يقام عندما يبلغ الصبي الثالثة عشرة من عمره احتفالاً بقدرته على القيام بالفرائض الدينية المفروضة عليه. (المترجمة)

(٤) حفل يهودي ديني يقام للبنات عند بلوغهن الثانية عشرة من عمرهن، ومراسمه أقل من مراسم الاحتفال بالصبيان. (المترجمة)

لها تاريخًا مليئًا بالتقلبات، إنه تاريخ مثل التاريخ الأمريكي به الكثير من أوقات الإفلاس وإعادة البناء. يعتبر شارع «شاتوك» المتجه إلى وسط البلد في بيركلي، مكانًا للذواقة أيضًا، ففيه متجر لبيع الأيس كريم يحمل اسمًا يربط بين عصر الباروك الإيطالي وعصر الذكاء الاصطناعي: إنه مطعم «كارافاجيو جيلاتو لاب» Caravaggio Gelato Lab. يقدم هذا المتجر إلى جانب الأصناف التقليدية من الأيس كريم أصنافًا أخرى نادرة، مثل أيس كريم بطعم شاي «الماتشا» الأخضر وبطعم السمسم الأسود أو بطعم الخوخ بالكراميل. تتمنى حفيدتي أن أشتري لها أيس كريم البطيخ قبل أن أسافر. لم يكن ذلك الصنف متوفرًا. يعدنا المالك أن يوفر هذا الصنف بشكل أسرع حتى نستطيع أن نتناوله سويًا قبل سفري. يستغرق صنع الأيس كريم في العادة خمسة أيام بدءًا من شراء المكونات وصنع الأيس كريم وانتهاء بتبريده حتى يتمكن الزبون في النهاية من شراء النوع الذي يختاره. تعتبر كاليفورنيا مثلاً يحتذى في إنتاج الغذاء العضوي من خلال عمليات تصنيع صحية ومراقبة.

أتراسل مع جيراني في بيركلي ومع صديقاتي الاثنتين اللتين لم تغادرا مكانهما. إنهما سعيدتان لأن «جو بايدن» رشح «كامالا هاريس» لمنصب نائب الرئيس. امرأة من كاليفورنيا، من أوكلاند، امرأة من وسطهم. تكتب لي الجارة هناك أنها تسمع الأحفاد يضحكون في الحديقة. كم أغبطها. الحب عن بعد مليء بالمخاطر. أفكر في الفتاة الصغيرة في روضة الأطفال التي يرتادها حفيدي والتي كانت تبكي كثيرًا. حاولت أن أواسيها. قالت المشرفة: «إنها

لا تفهم الإنجليزية، فقط الفنلندية والفرنسية.» فبدأت أتحدث معها بالفرنسية الأمر الذي ساعد على إيقاف سيل الدموع في بعض الأحيان. عرفت منها أن والدتها كانت في منحة بحثية في السوربون لمدة ستة شهور. أين هي الآن، تلك الفنلندية الصغيرة التي كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة لأن أمها كانت في منحة بحثية في جامعة السوربون قبل أن تأتي إلى بيركلي؟

ستولد حفيدتي الثالثة في يونيو ٢٠٢٠ في شمال ولاية بادن، في منطقة قريبة للغاية من بيت أجدادي في ڤيزلوخ الذي كان يضم أجيالاً عديدة، أذهب إلى ستوديو «ميركو ب» لأدق وشمًا يحمل الأحرف الأولى من اسم الطفلة التي ولدت مؤخرًا. أقرأ ورقة التعليمات من جديد: «بالرغم من الإقبال المتزايد على دق الوشم وارتفاع شعبية من يحملون وشمًا وتقبلهم، إلا أنه من الممكن أن يرفض مالكو العقارات وأصحاب الأعمال التعامل مع الأشخاص الذين يحملون وشمًا.» أندهش. يصيح ميركو وأنا أغادر «أتمنى لك العافية والصحة أيتها الطويلة.» لم ينادني أحد ب«الطويلة» من قبل أبدًا. ألوح له شاكرة وأنا أودعه. أحمل وشمًا حديثًا وأقرأ في جريدة «زود دويتشه تسايتنونغ» حوارًا مع رئيس مهرجان برلين الثقافي، «توماس اوبراندر» Thomas Oberender، أحد أفضل العاملين في مجال الإدارة الثقافية في أوروبا. خصص الحوار للمعرض الذي افتتح مؤخرًا بعنوان «الهبوط إلى أرض الواقع» والذي استند إلى عمل للفيلسوف الفرنسي «برونو لاتور» Bruno Latour بنفس العنوان. يربط المعرض بين الفنون وبين التجارب في مجال البيئة.

يقول «اوبراندر»: «لقد تركنا حقبة الأنثروبوسين[1] خلفنا وأصبحنا الآن في زمن القلق على الكوكب.» أجد ما يقوله صحيحًا للغاية.

تشتعل الحرائق في كاليفورنيا من جديد. أحاطت هذه المرة بمنطقة خليج سان فرانسيسكو كلها في شمال بيركلي وفي جنوب سان خوسيه أيضًا. تتلون السماء باللونين البرتقالي والأسود. تنتشر في كل مكان صور عن نهاية العالم. ثمة أيام يصبح فيها القلق على الكوكب قلقًا شخصيًا للغاية.

آلام الفراق وعدم اليقين مما سيأتي يؤثر فينا جميعًا، سيتأثر كل فرد بطريقته الخاصة.

أذهب إلى مسرح «أم راند» في منطقة «اودراويه» حيث يقرأ «توماس رومان» Thomas Rühmann قراءة مسرحية موسيقية لقصة «خوليو كورتاثار» Julio Cortázars «الطريق الجنوبي السريع» التي كتبها في عام ١٩٦٦. إنها قصة رمزية تحكي كيف امتد ازدحام مروري في طريق بوليفارد بريفريك الجنوبي في باريس لعدة شهور وليس لعدة ساعات، وكيف جعل هذا الازدحام البشر تعيد التفكير في أساس وجودهم في ظل العواقب التي ترتبت على ذلك، وهي

(١) الأنثروبوسين Anthropozän هو مصطلح مقترح لحقبة يعود تاريخها إلى بداية الفترة التي بدأ فيها تأثير الإنسان على جيولوجيا الأرض ونظم البيئة، بما في ذلك تغير المناخ. لكن لم توافق اللجنة الدولية للطبقات الجيولوجية ولا الاتحاد الدولي للعلوم الجيولوجية رسميًا على هذا المصطلح، فأصبح يستخدم بشكل غير رسمي في السياقات العلمية. (المترجمة)

عواقب نلاحظها نحن أيضًا في أثناء الجائحة. يقدم «رومان» قراءة رائعة. أعود إلى برلين وقد استعدت قوتي.

أتحدث مع أحفادي عبر سكايب بعد عودتي من الحفلة الصباحية في مسرح «أم راند. إنهم يكبرون، يتعلمون السباحة والحساب والقراءة بدون وجودي وسطهم. يشجعون جدتهم بذكر كل ما سنقوم به سويًا بعد كورونا، فسوف يقرأون لي الكتب. انقلب العالم.

أدرك بكل تواضع أنني أحتاج إلى أحفادي أكثر مما يحتاجوني هم. أدرك أيضًا أن تواريخ اللقاء المدونة في تطبيق العد التنازلي ستصاحبني طول حياتي. كنت قد دونت تاريخ «عيد الفصح ٢٠٢٠» في التطبيق قبل سفري الاضطراري في مارس في محاولة لمواساة روح الجدة داخلي، ولكني أحذفه الآن. تلغي المسافات البعيدة تزامن الوقت في اليوم والسنة واللغة والعادات. لكنها لا يمكن أن تلغي تزامن الحب.

شكر

أشكر من كل قلبي محررتي «جيزين دامل» Gesine Dammel التي ساعدتني في كتابة النص وفي التحضير له، كما أشكر كل من «غابربيله بيشوف» Gabriele Bischoff، «ڤينفريد هورننغ» Winfried Hörning، «كاتارينا روت» Katharina Rout، «راينر شولته» Rainer Schulte «برند شڤيبس» Bernd Schwibs، «ألكسندر سيمون» Alexander Simon، «جيزا فوغت» Gesa Vogt. وأشكر «جوني بيكر» Johnny Becker و«كريستوف جوده» Christop Gödde و«ميشايل غريزينغر» Michael Griesinger و«يانيكا روتر» Janika Rüter و«لاورا ڤاغنر» Laura Wagner للقيام بالأبحاث اللازمة والترجمة.



المحتوى

هذا الكتاب

يصف كتاب «الحب عن بعد» تجارب الكاتبة في نقاط اتصال تكنولوجيا المعلومات في كاليفورنيا (الهوت سبوت)، في وادي السيليكون والمدن الجامعية في بيركلي وستانفورد. تسافر الجدة بانتظام عابرة الأطلنطي لتزور الأبناء والأحفاد في كاليفورنيا، ولكنها زيارات لا تساعدها بالضرورة على فهم أسلوب الحياة في كاليفورنيا وبيئة العمل هناك.

هل تقدمت في السن إلى هذه الدرجة؟ أم أنها أوروبية الطباع وشخص يجيد التعامل مع الكتب فقط؟ يصف الكتاب في سخرية ذاتية وإيجاز العلاقات بين الأجيال واختلاف طرق الحياة والمواقف. تمثل حياة العائلة الموزعة على قارتين دائمًا تحديًا كبيرًا، وفي زمن الجائحة يصبح من المستحيل تقريبًا التغلب على هذا التحدي. إنه سرد لتجربة تعيشها جدة ألمانية، ولكنها تشاركها مع ملايين العائلات الأخرى في جميع أنحاء العالم.

تستعيد الكاتبة في هذا الكتاب أيضًا لمحات من حياتها العملية في سوق الكتب الدولي وتضيفها إلى انطباعاتها وتأملاتها الشخصية. لماذا كانت رحلات العمل إلى بكين وبيروت وكلكتا سهلة بالنسبة لها بينما لا تجد الحياة في كاليفورنيا كذلك؟ إنه كتاب عن أساليب الحياة والعمل في زمن العولمة، كتاب ممتع ويدفعك للتفكير.

الغلاف : سكينة صلوت



